رسائل شوق وحنين

(١)

رسائل إلى الله

أربعون رسالة في الشوق للجمال الإلهي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضـرة النورانيـة المقدسـة أن تلغي كـل الحجب والمسـافات الـتي تربط بين العبد وربه.. لتصل العبد بربه مباشـرة عـبر مناجاته والحديث معـه وبثـه أشـواقه ومطالبـه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضـايا العقديـة والعرفانية الواردة في المصادر المقدسـة أو الـتراث الإسلامي، وبصـياغة رقيقـة بعيـدة عن المصـطلحات الصـعبة، أو الجـدل، أو غيرهـا من الأسـاليب الـتي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحاول كـذلك أن تجـادل عن تلـك المعـاني السـامية، ولكن بطريقـة حسـنة بعيـدة عن الشـغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البـديهيات الـتي يسـلم لهـا.. ثم تنتقـل مباشـرة من العقـل لتبث في القلب كـل ألـوان العواطـف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.

رسائل إلى الله

أربعون رسالة في الشوق للجمال الإلهي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2019 . 1440

دار الأنوار للنشر والتوزيع

□

فهرس المحتويات

مقدمة السلسلة

تحاول هذه السلسلة طرح القضايا العقدية وما يرتبط بها من المفاهيم والقيم وغيرها طرحا خاصا يمزج بين العاطفة والعقل.. ويحاول أن يقرب المسافة بين الحقائق والمستقبل لها حتى يصير قريبا منها ملامسا لها.. وحتى لا تبقى أمثال تلك القضايا المهمة نوعا من الفلسفة أو الأفكار الذهنية التي لا علاقة لها بالوجدان أو السلوك.

والدافع إلى تأليفها هو ما نراه من أن العقيدة تختلف عن العلم المجرد.. فالعلم معارف ذهنية قد لا يكون لها أي تأثير في الوجدان أو السلوك، بينما العقيدة تتجاوز ذلك كله، لتخاطب العقل والقلب والروح وكل اللطائف، ثم تتجاوزها جميعا إلى السلوك؛ فتؤثر فيه بكل أصناف التأثيرات.

ولذلك حاولنا في هذه السلسلة ـ عبر قضاياها المختلفة ـ أن نتجاوز الواسطة الذي يفرض مفاهيمه ومعارفه على المتلقي، وإنما جعلنا المتلقي نفسه مع القضايا نفسها من غير أي واسطة.

ففي هذه السلسة يخاطب القارئ ربه مباشرة.. وفي أثناء خطابه له يتلقى المعارف منه، ويرد على كل الشبه التي قد ترد على عقله.. ويستقبل كل المعاني السامية التي تهديه إليها معرفته.

وفيها يخاطب القارئ رسوله ﷺ .. ويحدثه كما يحدث الجليس جليسه.. لتنتفي بذلك الخطاب كل الوسائط.. و في ذلك الخطاب يتعلم الأدب في حواره مع رسول الله ﷺ ..

ويتعلم القيم النبيلة التي جاء بها.. ليزداد محبة له، وتعظيما لحضرته.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة الإمام علي .. التلميذ الأكبر لرسول الله .. والمظلوم الأعظم في هذه الأمة.. ليتعرف عليه، وعلى القيم النبيلة التي مثلها، بعيدا عن كل ألوان الجدل والخصومة.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة القرابة المظلومة من آل بيت النبوة، ويتعرف على فضلها وقيمها النبيلة، ومدى المظلومية التي لحقت بها، حتى يصحح علاقته معها، وحتى يتمثل ما ورد في النصوص المقدسة من الوصية بها.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة الصحابة المنتجبين الذين حافظوا على هدي النبوة، ووفوا لها، وكانوا نماذج رفيعة عن التلمذة الحقيقية لقيمها، حتى يمتلئ بحبهم، لا بحب المشوهين لهم، أو المتاجرين باسمهم.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة الأنبياء والمرسلين، ويملأ قلبه من محبتهم وتعظيمهم، ويتعرف على القيم النبيلة التي مثلوها، والتي حاول المغرضون تشويهها، وتشويههم معها.

وهكذا يخاطب القارئ في هذه السلسلة الأئمة المطهرين الذين ورثوا النبوة، ومثلوها أحسن تمثيل، فيتعرف على مقاماتهم الرفيعة، وأخلاقهم العالية، ويملأ قلبه بمحبتهم والشوق إليهم.

وهكـذا يخـاطب القـارئ في هـذه السلسـلة الملائكـة السـفرة الكـرام الـبررة، ويتلقى في ذلـك الخطـاب أنـواع المعرفة بفضلهم وكرامتهم ومكانتهم عند الله.. والقيم النبيلة التي مثلوها.. وليعقد الصحبة معهم في الدنيا قبل الآخرة.

وهكذا فإن هذه السلسلة ـ بأجزائهـا الثمانيـة ـ محاولـة لصياغة جديدة للقضـايا الإسـلامية المختلفـة بصـيغة عاطفيـة عقلية حتى يعيش القارئ المعاني العقدية، والقيم المرتبطـة بها، ولا تبقى مجرد معاني ذهنيـة لا أثـر لهـا على القلب.. ولا في السلوك والحياة.

وقد كان هادينا إليها ما تعلمنـاه من القـرآن الكـريم من تلك المناجيات وغيرها، والتي تصلنا بالله أو رسله أو ملائكتـه مباشرة، بعيدا عن كل أصناف الوسائط.

وهي ـ لذلك ـ تحتـاج إلى طريقـة خاصـة في القـراءة.. فهي أحيانا قد تضـع المعـاني الكثـيرة في كلمـات ومفـردات قليلـة، تحتـاج الكثـير من التـدبر والتأمـل والتفكـير، لـيرقى القارئ بها إلى ما تختزنه من المعاني السامية.

ذلك أنا قصدنا فيها الاختصار حتى يتيسر للقارئ الاطلاع عليها بكل يسر.. والاختصار يحتـاج إلى التأمـل والتـدبر حـتى يحيط بمعانيها، وقد ينـال في أثنـاء تـدبره لهـا مـا لم يقصـده كاتبها نفسه.

وأسأل الله أن يجعل هذه الرسائل شـفيعا لي ولقرائهـا الكرام يقربنا جميعا ممن أرسلتها لهم.. وأنا موقن تماما أنهـا وصلت لهم، وأنهم ـ بكرمهم وفضـلهم ـ أعظم من أن يـردوا من خاطبهم، أو خطب ودهم.

مقدمة الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضرة النورانية المقدسة أن تلغي كل الحجب والمسافات التي تربط بين العبد وربه.. لتصل العبد بربه مباشرة عبر مناجاته والحديث معه وبثه أشواقه ومطالبه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضايا العقدية والعرفانية الواردة في المصادر المقدسة أو التراث الإسلامي، وبصياغة رقيقة بعيدة عن المصطلحات الصعبة، أو الجدل، أو غيرها من الأساليب التي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحاول كذلك أن تجادل عن تلك المعاني السامية، ولكن بطريقة حسنة بعيدة عن الشغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البديهيات التي يسلم لها.. ثم تنتقل مباشرة من العقل لتبث في القلب كل ألوان العواطف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.

وهي تطرح الكثير مما ورد في النصوص المقدسة من أسماء الله الحسنى، وتتقرب إلى الله من خلالها.. فأسماء الله الحسنى هي مرائي التعرف على الله.. وهي معارج السير إليه.. وهي مراقي النفس لتصل إلى براءتها وطهارتها .. وتصل معهما إلى الطمأنينة التي ربطها الله بذكره ودعائه ومناجاته.. فعلامة صدق الذكر والدعاء

والمناجاة حصول الطمأنينة.. كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد: 28]

ولذلك حاولت هذه الرسائل أن تبث كل معاني الطمأنينة المرتبطة بذكر الله.. وذلك عبر إشعار القارئ بالطمأنينة إلى الله، والثقة المطلقة فيه.. وأنه وحده صاحب الكمال المطلق، وصاحب الكرم المطلق.. ولذلك حاولت هذه الرسائل تعليم آداب العبودية.. فعلامة صدق الإيمان تحقق العبودية.

كما أنها حاولت أن تربط العقيدة في الله بالقيم الرفيعة.. فيستحيل على من عرف الله ألا يتحلى بمكارم الأخلاق.. ولذلك مزجت بين الإيمان والأخلاق.. وربطت بين التحقق بمعرفة الله والتحقق بمكارم الأخلاق.

وقد كان دليلنا إليها، ومعلمنا فيها تلك الأدعية النورانية، والمناجيات الروحانية الواردة في القرآن الكريم.. ومثلها تلك التي رويت عن رسول الله أو عن أهل بيته الطاهرين.. والذين تركوا لنا تراثا عظيما من الأدعية والمناجيات يمكنه أن يغنينا عن كل ما سطره المتكلمون أو العرفاء أو الفلاسفة في تلك الجوانب.

ولذلك كانت أسوتنا بهم.. فهم أئمتنا وأساتذتنا.. وكل حرف سطرناه إنما هو نتيجة تشرفنا بالتلمذة عليهم، وعلى ذلك التراث النبيل الذي تركوه لنا، والذي علمونا من خلاله كيف نخاطب ربنا، وكيف نمارس دورنا في العبودية معه.

الظاهر والمظاهر

إلهي.. يا محتجبا بحجاب الغيب المطلق..

لقد رحت لكل شيء أسأله عنه، وعن سره، فدلني عليك..

أخبرتني الزهرة أنها وعطرها وجمالها لم تكن لولاك..

وأخبرتني أن الذي ذاب في حبها يكذب على نفسه، وعليها، لأنها ليست سوى نقطة من محيطات جمالك الذي لا حدود له.

وأخبرني الكرم والرحمة واللطف المتجلي في كل شيء بأنه منك بدأ، وإليك يعود، وأنه ليس سوى مظهر من مظاهر كمالك الذي تجلى في الأشياء، ولا وجود له لولاك.

وعندما سألت كل العاشقين عن سر عشقهم أخبروني أنهم تاهوا في تلك التقاسيم الجميلة، والأفواه العذبة، والعيون الحوراء، والابتسامات الآسرة..

وعندما رحت أسألها جميعا عنها وعن سرها أخبرتني أنها أشباح لولاك..

فأنت سر الجمال والبهاء المودع فيها، ولولاك لبقيت في عالم الظلمات المطبقة التي لا محل فيها لأي جمال ولا لأي بهاء، ولا لأي وجود.

وعندما رحت أسأل العلماء والفلاسفة عن سرهم أخبروني أنهم غرقوا في بحر الأسرار المودعة في عوالم

الحس والمعاني..

وعندما تـركتهم، ورحت أسـألها عن سـرها، وسـر تعلـق العلمـاء والفلاسـفة بهـا أخبرتـني أنهم لم يتعلقـوا بهـا، وإنمـا تعلقوا بصاحبها الذي لا حدود لإبداعه، ولا قيود لكماله..

وأخبرتــني أن ســر حجــابهم انشــغالهم بالمظــاهر عن الظــاهر، وبالأشــياء عن مشــيئها، وبالصــور عن مصــورها، وبالكون عن مكونه.

فأسألك يا رب كما دللتني عليك بالمظاهر التي أظهرتها ألا تحجبني بها عنك، فإن أكثر الناس راحوا يتأملون فيها وفي جمالهـا، وبـدل أن يرحلـوا منهـا إليـك، سـجنوا أنفسـهم في سجونها، ونسوك، فتحـولت لهم إلى صـورتها الحقيقيـة الـتي خلت عنك، وملأتهم عذابا.

يا رب.. لقد علمت أنه لا جمال لشيء من دونك.. فأنت المصور البديع الذي بيده كـل الألـوان، فلا وجـود للألـوان من دونك..

وقــد علمت أنــه لا رحمــة لشــيء من دونــك.. فــأنت الرحمن الرحيم.. وما نراه من رحمـة ولطـف وعنايـة ليسـت سوى قطرات من محيطات رحمانيتك التي لا حدود لها.

وقـد علمت أنـه لا سـعادة من دونـك، فـأنت الـذي تملأ القلوب بالفرح الحقيقي الذي لا يزول، وكيف يزول ومصـدره منك، وأنت الحي الذي لا يموت؟

وقد علمت أنه لا كمال من دونك.. وكيف يحصل الكمال لمن تعلـق بالناقصـين، وسـجن في سـجون القاصـرين، ولم

يرتق في سلم العارفين؟

وقد علمت أنه لا وجود من دونك.. فأنت صاحب الوجود المطلق، وكل ما نراه من موجودات فيوضات من بحر جودك ووجودك.

يــا رب.. فــأعوذ بــك أن يأســرني الوجــود التبعي عن الوجود الأصلي..

وأعوذ بك أن أسـجن في سـجون الظلال الـتي تريـد أن تملأ حياتي بالوهم.

وأعوذ بك أن أبحث في السـراب عن المـاء.. فلا وجـود للماء من دونك.. ولا يرتوي العطشان قبل أن يلقاك.

يا رب.. اجعلني أتنقل في الآثار بصحبة الاعتبار.. حتى لا أسجن في سجونها.. وإنما لأعبر منها إليـك، وأجعلهـا سـلمي الذي أرتقي بـه إلى عظمتـك.. فـأنت المطلـوب الأول، وأنت المقصد الأعظم.

يا رب لقد أبرزت المظاهر لتدل عليك، فـاجعلني أرحـل منها إليك..

وأعوذ بك أن تكون رحلتي من الأكوان للأكـوان، فـأكون كحمار الرحى الذي يتنقل في دائرة مفرغة، مليئة بالعبث.

اجعلني يـا رب أراك في كـل شـيء، وقبـل كـل شـيء، وبعد كل شيء، ومـع كـل شـيء، وعنـد كـل شـيء.. حـتى لا تقيدني الأشياء بقيودها، فأحجب بها عنك.

يا رب.. لقد أعطيتـني من نعمـك كـل مـا طلبتـه منـك..

لكني أعوذ بك أن تكون تلك النعم اختبارا لصدق مودتي لك.. فأنا لم أطلبها منك لتكون حجابا بيني وبينك، بل طلبتها لعلمي بكرمك وفضلك ورحمتك.

يا رب طلبتها منك، لتكون دليلي إليك، لا حجابا بيني وبينك.. فاجعلني أفرح بها لكونك مهديها ومرسلها والمنعم بها.. وأعوذ بك أن يشغلني فرحي بها عنك، فأكون كذلك الذي باع عز الأبد بدراهم مغشوشة.

يا رب.. أنا قطرة من بحر جودك.. فاغمرني بفضلك.. وأدخل قطرتي في محيط جمالك.. لتفنى في جمالك عن نفسها.. فلا سعادة للقطرة إلا في عودتها للمحيط الذي منه برزت، وبه ظهرت.

العزة المقدسة

إلهي.. أيها العزيز الكريم الذي لا يعز إلا من لاذ به، وسكن إليه، وارتمى في بحار عبوديته..

ذل من طلب غيرك، وانتكس من ركن إلى سواك.. فلا عزيز غيرك، ولا عزيز إلا من أعززته.

لقد رأيت من الخلائق من اعتز بماله وغناه، لكنه ما إن نعم به أياما، حتى أذله دهورا وأعواما.. ثم تركه أحوج ما يكون إليه.

ورأيت من اعتز بجاهه وسمعته.. لكن الأيام أغارت عليهما؛ فتحول من العزة إلى الذلة، ومن الشهرة إلى الخمول، ثم سرعان ما نسيه الخلائق، ولم تبق إلا جرائمه تجرعه كل صنوف الهوان.

ورأيت من اعتز بصحبة السلاطين والملوك والأمراء.. لكنهم لم يذيقوه إلا كل ألوان الهوان، ثم تركوه أحوج ما يكون إليهم.

ورأيت من اعتز بعلمه.. فلم ينفعه علمه، لأنه لم يكن لك، ولا بك، ولا لأجلك وإنما كان لمباهاة العلماء، ومماراة السّفهاء، والافتخار به في المجالس والمنتديات والمؤتمرات وعلى شاشات القنوات.

ورأيت من اعتز بنسبه، فلم ينفعه نسبه، لأن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وكان أول من تبرأ منه أولئك الذين ادعى نسبته إليهم.

ورأيت من اعتز بحسبه.. فلم ينفعه حسبه.. بل كـل من اعتز بهم أذاقوه من ألوان الهوان، ما زاده ارتكاسا وسقوطا.

كـل هـؤلاء يـا رب تمرغـوا في أوحـال الذلـة.. لأنهم لم يعرفوك، ولم يتصلوا بك، ولم يعيروك أي اهتمام.. بل توهموا أن أولئــك الــذين اســتعزوا بهم أعظم منــك شــأنا.. لكنهم اكتشفوا في الأخير أنك أنت وحـدك العزيـز، وأنـه لا عـزة إلا لمن صحبك، ولجأ لجوارك، وتواصل معك، وعاش في كنفك.

لقـد أدرك سـحرة فرعـون ذلـك.. فعنـدما دخلـوا على فرعون كانوا فرحين مستبشرين يـرددون {بِعِـزَّةِ فِرْعَـوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشـعراء: 44]، لكن موسـى الـذي لم تكن عزته إلا بك، كان ينظر إليهم حزينا، وهو يرى تعلقهم بقشة لا تغنيهم شيئا..

وسرعان ما رمى عصاه، لتلتهم كل ما أعدوه، وليعلمـوا حينها أن العزة لله وحده، وأن فرعـون لا يسـاوي شـيئا أمـام تلك العصا الخشبية التي كانت في يد نبيك موسى.

وهكذا فعل إبراهيم الذي لم يبال بكل تلك النيران الـتي أعدت له.. ولا بذلك النمروذ الذي صب عليه جام غضـبه.. ولا بأولئك الخلائق الذي التفوا حوله ليشموا روائح جسـده، وهـو يشوى..

كان إبراهيم حينها مشغولا عنهم بك.. بل كـان في غايـة السرور، لأنه سيقدم جسده قربانا لعظمتك وجلالك.. ولـذلك لم يشعر بأي ذلة، بل كان في قمة عزته وكرامته..

وقد شئت يا رب أن تريهم بعض مظاهر عزتك، فحـولت النار بردا وسلاما.. ليقف الجميع مبهوتين.. وليعلمـوا ذلـة من

اعتزوا بهم، وهوان من ركنوا إليهم.

يا رب.. أسألك وأنت العزيـز الكـريم.. ألا تجعلـني أركن إلى شــيء غــيرك.. فــأنت الغايــة العظمى، وأنت المقصــد الأسنى، وأنت الذي يذل كل من احتمى بغيرك.

وأعوذ بـك يـا رب من تلـك الأهـواء الـتي تقيـد أصـحابها بخيوط الحرير، لتجرهم إلى حتفهم، وتقضــي على حقـائقهم، فتكون أنت أول ما يخسرون.. وبخسارتهم لك يخســرون كـل شيء.

يـا رب.. لقـد أمرتنـا في كتابـك أن نـردد: {اللَّهُمَّ مَالِـكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْـزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّنْ تَشَـاءُ وَتُعِـزُّ مَنْ تَشَـاءُ وَتُـذِلُّ مَنْ تَشَـاءُ بِيَـدِكَ الْخَيْـرُ إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 26]

ونحن نرددها بألسنتنا كما أمرتنا.. فاجعلنا نرددها بقلوبنا وأرواحنـا وأسـرارنا، حـتى نعلم أنـك الملـك الوحيـد في هـذا الكون.. وأن نـداءك { لِمَنِ الْمُلْـكُ الْيَـوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ} [غــافر: 16] ليس خاصــا بــالآخرة، بــل هــو عــام في كــل الأوقات.. لكن لا يسمعه إلا أصحاب البصائر.

يا رب.. لقد قلت في كتابك: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِـزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10]، ونحن ـ يا رب ـ نريـد تلـك العـزة الحقيقية الـتي جعلتهـا لأنبيائـك وأوليائـك وأصـفيائك.. أولئـك الذين صـفيت القلـوب من الأغيـار، فلم يلتفتـوا إلا لعظمتـك، ولم ينبهـروا إلا بجمالـك، ولم يقضـوا حيـاتهم إلا في خـدمتك وصحبتك وعبوديتك.

يا رب.. لقد حـدثنا رسـولك الخـاتم، فقـال: (تعس عبـد

الدينار، وعبـد الـدرهم، وعبـد القطيفـة، وعبـد الخميصـة، إن أعطي رضي، وإن منع سخط)[1].. ونحن نعوذ بـك يـا رب أن نكون عبيـدا لهـؤلاء ولغـيرهم.. ونسـألك أن نكـون عبيـدا لـك وحدك.

يـا رب.. لقـد قلت في كتابـك: {قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ } [التوبـة: 24]، ونحن نعـوذ بك يا رب أن يكـون آباؤنـا أو إخواننـا أو عشـائرنا أو كـل من ذكرتـه حجابـا بيننـا وبينـك.. فـأنت المقصـود الأعظم، وأنت المحبوب الأعظم.

يا رب.. نحن لا نملك نفوسنا، ولا قلوبنا، ولا أرواحنا.. ولا نملك شيئا من أمرنا.. فكن أنت سندنا، و(آت نفوسنا تقواهـا، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[2]

فنحن نعلم يـا رب أنـه لا يعـتز بـك إلا من أطاعـك، وملأ قلبه بحبك، وشغل حياته بك، لا بسواك، وقد قلت في كتابــك العزيز: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [المنافقون: 8]

1()صحيح البخاري 4/34 ح(2886)

2()رواه مسلم (2722)

التدبير الحكيم

إلهي.. أيها المدبر الحكيم الذي لا يقوم شيء في الكون إلا بتدبيره وتسييره ورعايته.

كم نبتعد عنك حين يعترينا الألم والحزن واليأس لأجل أحداث بسيطة تنزل بنا، تعجز عقولنا عن إيجاد حلول لها.

وبدل أن نهرب إليك، ونفوض الأمر إلى تدبيرك، ننحني للأيام، ونمتلئ باليأس والقنوط، ونغفل أن نضع بين يديك ما حل بنا، لتدبره بحكمتك وعلمك ولطفك وخبرتك.

وكأن الذي دبر هذا الكون من الذرة إلى المجرة غيرك..

وكأن الذي صمم خلايانا وأنسجتنا وأعضاءنا وأجهزتنا بذلك التصميم العجيب الذي أبهر العلماء والأطباء والخبراء سواك.

ولو أننا ـ ربنا ـ تركنا عقولنا التي عقلتنا، ورحنا نتأمل في خلقك البديع، وصنعك الحكيم، لسمعنا كل شيء يسبح بحمدك، ويقر بأنك أنت الخالق الرازق المدبر لكل الأمور، وأنه لولاك لم يكن شيئا.

فأنت الذي أفضت علينا وعلى كل شيء نعمة الوجود، وأنت الذي أمددتنا وأمددت كل شيء بكل أنواع الرزق، وفيوضات الفضل.

أفيعجز من {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50] أن يعطينا ما سألناه، أو يدبر من أمورنا ما عجزنا عنه؟

أو يمكن لليأس أن يحل في عقــل أو قلب شـخص يعلم أنك الخـالق الـرازاق المـدبر الحكيم العليم الخبـير.. الـذي لا يستحيل عليه شيء، وكيـف يسـتحيل عليـه، وهـو خـالق كـل شــيء، ومــدبر كــل أمــر، والــذي لا نهايــة لعلمــه، ولا حــدود لقدرته؟

وهل يكون العجـز إلا لـذلك الجاهـل الـذي لا يعـرف من الأشياء إلى ظواهرها.. وأنت المحيط بكل شيء علمــا، دقيقــه وجليله، وأوله وآخره، وعاقبتـه وفاتحتـه، لا نهايـة لمعلوماتـك ولا حصر لها، وقد قلت في كتابك الكريم على لسان نبيك شعيب: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (الأعراف: 89)؟

ولـذلك كـان من أسـمائك (الواسـع).. فـأنت واسـع في علمك وخبرتـك ولطفـك وقـدرتك وحكمتـك ورحمتـك.. وكـل شيء.

ولـذلك أينمـا وجهنـا عيوننـا وقلوبنـا وعقولنـا وأورواحنـا وجـدناك، ووجـدنا تـدبيرك وحكمتـك ولطفـك.. وسـمعنا كـل شيء يردد قولك: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَــا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

ولذلك لا مكان لليأس معك.. وهل اليـأس إلا من أولئـك الجهلة العاجزين الممتلئين بالضعف.. أولئـك الـذين وصـفتهم بأنهم { لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَـهُ وَإِنْ يَسْـلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُـوبُ } [الحج: 73]؟

وقد عدت يا رب لكل جامعات الدنيا ومخابرها، وســألت جميع علمائها، وفي جميع التخصصات، فـأخبروني بصـدق مـا

ذكرته عن الذبابة، بل أخبروني بأن العلم ـ مع تطوره الكبـير، وفي كل المجالات ـ لا يزال عاجزا أمام أبسط الأمور، وأحقر الأشياء.. وأنه يظل دائما يمد يده إليك طالبـا مـددك وفضـلك وجودك.

يارب.. أنا أعلم، بل أوقن.. أن كل تلـك المعامـل، وكـل أولئك العلماء، لم يكونوا ليحققـوا شـيئا، وفي أي مجـال دون مددك..

فـأنت الـذي هـديتهم، وأنت الـذي علمتهم، وأنت الـذي دللتهم على ما عجزت عقولهم عن معرفته وتدبيره.

لكن بعضهم يارب.. وبدل أن ينسب الفضل إليــك، ويملأ عبادك بالإيمان واليقين، راح يـردد مـا ردده قـارون من قبلـه حين فرح بعلمـه، ونسـي فضـلك، وقـال: { إِنَّمَـا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: 78]

فنعوذ بك يا رب أن ننسب أي شيء لتدبيرنا، أو عقولنـا، أو علومنا.. فأين تدبيرنا، وعقولنا، وعلومنا منك؟

نعـوذ بـك يـا رب أن نكـون كأولئـك الـذين دعـوك في الضـراء، فلمـا مننت عليهم بالسـراء، راحـوا يغفلـون عنـك، وينسبون لأنفسهم ما حل بها من فضلك..

لقد قلت تذكرهم في كتابـك: {فَـإِذَا مَسَّ الْإِنْسَـانَ ضُـرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَــا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِـبُونَ (50) فَأَصَـابَهُمْ سَـيِّئَاتُ مَـا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَـيِّئَاتُ مَـا كَسَـبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الزمر: 49 - 51]

يا رب نعوذ بك أن نُفتن بعقولنا وعلومنا.. فنحن نعلم أن كل شيء منـك.. حـتى تلـك الخـواطر الـتي تـرد علينـا، وتملأ حياتنا سعادة وسرورا هي من فيوضات رحمتك.. وليست من تدبير عقولنا العاجزة..

وهكـذا فـإن كـل مـا نصـل إليـه من حقـائق في الكـون والحياة وكـل شـيء، هي إلهامـات منـك إلينـا.. فـأنت المعلم الذي يفيض على عباده من فيض علمـه.. وأنت المـدبر الـذي يوفر لكل شيء ما يحتاجه.

يارب.. فاجعلنا نركن إليك.. لا إلى الأشياء، ونفرح بـك لا بالأشـياء.. ونمـد يـدنا إليـك لا إلى الأشـياء.. حـتى لا تكـون الأشياء فتنة لنا، وحجابا بيننا وبينك.

يـا رب.. لقـد سـعد من قـرأ حـروف تـدبيرك في كـل شيء.. فلم يـر الريـاح إلا مرسـلة منـك، متحركـة بتحريكـك: { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الأعـراف: 57]

ولم يـر السـحاب وهـو يتجـول في السـماء ليبحث عن الأرض الـتي يرويهـا إلا متحركـا بعلمـك وقـدرتك: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِـهِ الْمَـاءَ فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ كَذَلِكَ نُخْـرِجُ الْمَـوْتَى لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ} [الأعراف: 57]

وهكذا لا يرى شيئا إلا رأى فيـه مظـاهر علمـك وقـدرتك وحكمتك ولطفك: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْـرِي فِي الْبَحْـرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)} [البقرة: 164]

لقد سعد.. لأن الأشياء لم تزده منك إلا قربا.. والتدبير لم يزده منك إلا معرفة.. فصار حقيقا بذلك الوصف الذي وصفت به العلماء، فقلت: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: 28]

فنسألك يا رب أن ترزقنا هذه الرؤية، ونعوذ بك من رؤية المحجوبين المنشغلين بأنواع التدبير عنك..

أولئك الذين يتناولون من بساتين فضلك، وبدل أن يلهجوا بشكرك، ويعترفوا بفضلك، ويحمدوك على نعمك.. يذكرون كل شيء، يذكرون الماء والهواء والتربة والضغط الجوي.. وينسوا أن يذكروك أنت.

أو أولئك الذين يذكرون الأطباء والمستشفيات والأدوية، ويثنون عليها الثناء العريض، وينسون أن يذكروك، مع أنك أنت الطبيب والدواء.. ولولاك ما حل الشفاء، ولا ارتفع البلاء.

النور الهادي

إلهي.. أيها النور الهادي الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هـداه سـواء السـبيل.. لـيرتقي من السـفل إلى العلـو.. ومن النقص إلى الكمال.. ومن الحجاب إلى المشاهدة.

لولا نورك الذي أخرجت به خلقـك من عـالم الظلمـات، لما ظهرت السموات والأرض، ولما بدا العالم بهـذه الصـورة البديعة التي نراها..

فنحن نرى كل شيء بنورك، ولولا نورك لعشنا مثل ذلك الأكمه الأصم الذي لا يعرف عالم الأصوات، ولا عالم الألوان، ولا عالم الأحاسيس، ولا عـالم المشـاعر، ولا عـالم الأفكـار.. ولا أي عالم من العوالم.

بنورك يا رب الذي ملأت به أحاسيسنا أدركنا الأشياء..

وبنـورك يـا رب عرفنـا الأشـياء.. واهتـدينا إلى أسـمائها وحقائقها وخصائصها..

فلولا نورك الذي نورت به أبصارنا وبصائرنا ما ميزنا بين ما يضرنا وما ينفعنا..

ولـولا نـورك ومـا اهتـدينا في حياتنـا إلى شـيء.. فـأنت الهادي الذي أنقذ خلقه من الضلال، وأنت النـور الـذي أخـرج خلقه من الظلمات.

وأنت الـذي علمتنـا كيـف نأكـل وكيـف نشـرب، وكيـف نلبس..

وقد علمتنا بمجرد نزولنا إلى الأرض كيف نستر أنفسنا، ونتجمل بما أنزلته من ثياب، فقلت: {يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 26]

ثم حذرتنا أن تتلاعب الشياطين بما أنزلته لنا، فقلت: { يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: 27]

وهكذا علمتنا كيف نتحول إلى بشر ممتلئين بالحضارة والمعارف والعلوم..

فكل العلوم منك، وأنت الذي هديت خلقك إليها، ولولا هدايتك ما اهتدوا إلى شيء..

وكل الاكتشافات والاختراعات هبة من هباتك لعبادك، ليعيشوا حياة مليئة بالطمأنينة والراحة، وليتفرغوا بعدها لمعرفتك، وعبادتك، وسلوك طريقك.

فأعوذ بك يا رب أن يتوجه شكري للعلماء والمفكرين والمكتشفين والمخترعين.. ثم لا أتوجه بشكري إليك.. فلولاك لم يصلوا إلى شيء.. فأنت الهادي الذي دلهم، وأنت المعلم الذي علمهم.

أنت يا رب مثل ذلك الذي بنى بيتا، ثم راح يصف لزواره ما أودع فيه من خصائص ولطائف.. فأما المتنورون بنورك، فقد فرحوا بك، وبفضلك، وسبحوك على جميل صنعك، وحمدوك على جميل فضلك.. وأما المحجوبون، فقد غفلوا

عنـك، وراحـوا يشـكرون من اكتشـف بعض مظـاهر صـنعتك، ويحجبون به عنك.. مع أنه لم يكن ليكتشفه لولا دلالتك.

لقد سـمعت بعضـهم يـذكر ذلـك الـذي اخـترع المصـباح الكهربـائي، وبـدل أن يكتفي بشـكره، راح يلحـد في آياتـك، ويمن بـه عليـك.. ويـذكر أنـه لـولاه لغـرقت البشـرية في الظلمات.

وهو يعلم أن ذلك المصباح لم يكن ليعمل لـولا الكهربـاء التي ليست سوى آية من آياتك.. ومثل ذلك الزجاج والأسلاك التي صنع بها المصباح.. ومثل ذلك العقـل الـذي جعلـه يفكـر ذلك التفكير.. أو يهتدي لذلك الصنع.

لكنك ـ يا رب ـ تحجب من تشاء بما تشاء..

لقد حجبت قارون عن معرفـة سـر فضـلك عليـه؛ فـراح يفتخر بعلمه، وينساك.. لقد قال لهم، وهـو ممتلئ بالكبريـاء: { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} [القصص: 78]

وهكذا فعل أقوام الأنبياء الذين توهموا أن ما وصلوا إليه من معارف يغنيهم عن رسـل اللـه، مـع أن معـارفهم ليسـت سوى هبة إلهية ليشكروه، لا ليكفروه.

لقـد قـال اللـه تعـالى يـذكرهم، ويـذكر سـبب حجـابهم: { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَـا عِنْـدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [غافر: 83]

يا رب.. فأعوذ بك أن يحجبني العلم عنك.. فـالعلم ليس سوى نور من أنوارك التي تدلنا عليك.. لكنـه قـد يتحـول إلى ظلام وضلال في قلوب المستكبرين الـذين يحتجبـون بـه عن

الحقائق، بدل أن يهتدوا به إليها.

يــا رب.. أنــا أعلم.. بــل أوقن أن كــل الاكتشــافات والاختراعات فضـل من فضـلك.. وآيـة من آياتـك.. وإني وإن شكرت أولئك الوسطاء الذين اكتشـفوها أو اخترعوهـا إلا أن شكري الأول لك.. وحمدي العظيم لك.. لأنه لولاك لم يصـلوا إلى شيء.

فـأنت الـذي أوصـلتهم، وأنت الـذي دللتهم، وأنت الـذي علمتهم، وأنت الـذي جعلتهم وسـائط رحمتـك وفضـلك على عبـادك.. لـترزقهم من فضـلك، ولتختـبر إيمـانهم بـك، وهـل يجعلون النعمة وسيلة إليك، أم يجعلونها حجابا بينهم وبينك؟

يـا رب أنـا أنظر إليهم مثلمـا أنظـر إلى النحـل الـذي هديتـه.. ولـولا هـدايتك مـا اسـتطاع أن يبـني مسـاكنه بتلـك الهندسة البديعة..

لقــد أوحيت لــه.. كمــا أوحيت لكــل المخــترعين والمكتشفين والباحثين.. لقد قلت تـذكر ذلـك: { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْـلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبَـالِ بُيُوتًـا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْـلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 68، 69]

وقد ذكرت في كلماتك المقدسة أن البشر عندما تـاهت بهم السبل في معرفـة كيفيـة التعامـل مـع موتـاهم أرسـلت الغـراب ليهـديهم.. لقـد قلت تـذكر ذلـك: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًـا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَـوْءَةَ أَخِيـهِ قَـالَ يَاوَيْلَتَـا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ

مِنَ النَّادِمِينَ } [المائدة: 31]

وهكذا كنت أنت الـذي علم نوحـا كيفيـة صـناعة الفلـك، وقلت لـه: { وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَـا وَوَحْيِنَـا وَلَا تُخَـاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [هود: 37]

وهكذا كنت أنت الـذي علم أيـوب كيـف يـداوي مرضـه، وقلت له: { ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَـارِدٌ وَشَـرَابٌ} [ص: 42]

وهكــذا كنت المختــبئ وراء كــل طــبيب أو صــيدلي أو مهندس أو مخترع أو مكتشف..

أمــا أصــحاب البصــائر، فيبصــرونك، كمــا يبصــرونهم، ويعلمون أنك الأصل وهم التبع.. وأنـك المعلم وهم التلاميـذ.. وأنك الهـادي وهم المهتـدون.. لكن المحجـوبين، يـرونهم، ولا يرونك، ويعبدونهم، ولا يعبـدونك.. ويسـجدون شـكرا لهم، ولا يسجدون شكرا لك.

فاهدني يا رب للحقائق التي تنزع عن عيـني الغشـاوة.. ونور قلبي بالنور الذي يكشف لي أسرار الأشياء.. فلا يمكنني أن أعرفك، وأنا محجوب بالطلاء والبهرج الذي يزور الحقائق، ولا يدل عليها.

الخير الأعظم

إلهي.. يا مصدر كل النعم، ومنبع كل خير..

يـا من خـاطبت عقولنـا وأرواحنـا بكلماتـك المقدسـة، تسألها قائلا: { آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} [النمل: 59]؟

أجل.. يـا ربنـا، فـأنت الخـير الأعظم، وأنت صـاحب كـل فضـل ونعمـة.. ولـولاك لم نعـرف الابتسـامة، ولم نمتلئ بمشاعر الفرح، ولم تغمرنا لحظات السعادة، ولم نعـرف في حياتنا إلا الشقاء.

لولاك لضاقت بنا الأكوان، وضاقت بنا الحيـاة.. وكيـف لا تضيق ولا أمل إلا معك، ولا سعادة إلا بك؟

فذلك الحنان الذي قابلناه أول ما خرجنا إلى هذه الـدنيا لم يكن إلا منك.. فلولا تلك الرحمة التي أودعتها قلوب آبائنـا وأمهاتنا، لرمونا، ولما أجهدوا أنفسهم في تحمل عنت الحيـاة من أجلنا..

وهكذا كل ما رأيناه من مشاعر الود واللطف والحنـان.. كلها منك، وبك، فقـد كنت أنت الـودود، وأنت اللطيـف الـذي يستعمل كل الوسائل لإسعادنا، وأنت الحنّان الذي يملأ قلوبنا بالفرح والأمل والسعادة.

أما ما نراه أو ما حصل لنا من الآلام، فهي مغمـورة في جنب فضلك العظيم، وهي محدودة بزمن محدود، سرعان ما يزول، لتحل بعـده نعمـك الخالصـة الـتي لا تُنغص، والصـافية التي لا تُكدر.

أنا أعلم يا رب أنك ما خلطت هذه الدار بتلك الكـدورات إلا لتنبهنـا وتربينـا وتهـذب أخلاقنـا.. فقـد رأيت بعضـهم يغـتر بصـحته، ويفخـر على من حولـه بكونـه لم يمـرض في حياتـه أبـدا، وبـدل أن يشـكرك، ويتواضـع لعظمتـك، راح يسـتعلي عليـك، وعلى خلـق اللـه، ويـذيقهم بـأس عضـلاته المفتولـة، وعقله الفارغ.

وهكذا رأيت من الأغنيـاء ممن رُبي في أحضـان الـثروة، يتيـه على الفقـراء، ويسـتكبر عليهم، بـل يـدعو إلى إبـادتهم لكونهم لا يختلفون عن البعوض والذباب.

ولـو أنـه ابتلي بمـا ابتلـوا بـه.. وذاق من ضـنك الحيـاة وضيقها بعض ما ذاقوه لخفف من كبريائه، ولعاد إليـه وعيـه.. لكنك يا رب تبتلي من تشاء بما تشاء.

ولذلك كان من رحمتك وحكمتك أن تضع في الحياة كـل الألوان حـتى تتمـيز جميـع الصـور، ويتمـيز معهـا الخـبيث من الطيب..

لقد ذكرت ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت: {وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَـا لِمَنْ يَكْفُـرُ بِـالرَّحْمَنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} (الزخرف:33)[1]

وذكرت أيضا ذلك الصلف والكبرياء الـتي تعـتري أولئـك الجاحدين الذين غمرتهم ببعض فضـلك، وبـدل أن يشـكروك، ويطلبوا المزيد، راحوا ينشغلون بما أعطيتهم، ويتصورون أنـه حقهم، ولا يعلمـــون أنهم مســـتدرجون، وأنـــك لم تعطهم إلا

1()أي لـولا أن يعتقـد كثـير من الجهلـة أن إعطاءنـا المـال دليـل على محبتنـا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصـوف في الآية..

لتختبر مواقفهم..

لقد قلت في كلماتك المقدسة تذكر ذلك: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ} (المؤمنون:55 ـ 56)

وقلت: {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}(آل عمران:178)

وهكذا أعلمتنا بأن رضاك ليس في تنزل النعم، وسخطك ليس في تنزل البلاء، وإنما علامة رضاك هي ذلك الرضا الذي نبديه لك، سواء أنعمت علينا، أو ابتليتنا.. لأنك لم تفعل ذلك بنا إلا لتربينا، وتعلمنا، فالدنيا دار تربية واختبار، وليست دار جزاء واستقرار.

لقد قلت تذكر ذلك، وتفنده: { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } [الفجر: 15، 16]

وذكرت أن غايتك من كل ما يوجد في الدنيا من أنواع البلاء هو تمييز الصالحين الصادقين من المنافقين الكاذبين.. لقد قلت تذكر ذلك: { مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (آل عمران: 179)

لقد جربت ذلك يا رب مع من يحيط بي من الناس.. ذلك أني بعد أن أظهرت لهم بعض إحساني تقربوا مني،

وأظهروا مودتي، لكني بمجرد أن أصابني من بلائك ما منعني من الإحسان إليهم، نفروا مني.. ولم يبق إلا الصادقون المخلصون، الذين لم يكتفوا بالزهد فيما عندي، وإنما راحوا يطلبون مني أن أتقبل إحسانهم وفضلهم.

لقد عرفت من ذلك سر البلاء.. وأنه لولاه لعشت حياتي كلها مخدوعا بأولئك المنافقين المحيطين بي.. والذين لم تكن مودتهم لشخصي، وإنما لذلك الكرم الذي كنت أبديه لهم.

لقد تعلمت من ذلك يا رب سر البلاء.. وحمدتك عليه، لأنك به نبهتني، ولولاه لم أكن لأكتشف الحقيقة، وأميز بين الصحيح والمزيف.

إلهي.. لقد رأيت بعض المستكبرين الجاحدين يرتدي نظارة سوداء قاتمة، ثم يطل من خرم إبرة على بعض مظاهر الشقاء الموجودة في الدنيا، ثم يقول باستعلاء مخاطبا بعض المغفلين المحيطين به: (ما دام الشر موجودا.. فالله ليس بموجود.. ذلك أنه إما أن يريد منع الشر لكنه لا يقدر؛ فهو إذن عاجز.. أو هو يقدر لكنه لا يريد؛ فهو إذن بغيض... أو هو قادر ويريد معًا؛ فهو إذن شرير)[1]

1() هذا نص [معضلة الشر] التي ذكرها أبيقور، ثم تبناها بعده كل الملاحدة، وهي . تعتبر في الغرب اليوم، أهم شبهة إلحادية، وقد صرح كثير من أئمة الإلحاد، مثل (أنتوني فلو)، أهم منظري الإلحاد في العالم، في النصف الثاني من القرن العشرين، قبل تراجعه في بداية القرن الواحد والعشرين، أن شبهة الشر هي سبب إلحادهم، وجحدهم وجود إله خالق .. وهكذا نرى الفيلسوف الأمريكي (مايكل تولي) في مناظرته مع (ويليام لين كريغ) (2010 م)، اكتفى ـ تقريبا ــ باستعراض مشكلة الشر لإنكار وجود الخالق، مصرحا أن الحجة المركزية للإلحاد هي حجة الشر، وهو ما فعله أيضا الفيلسوف البريطاني الملحد (ستيفن لاو)، في مناظرته مع كريغ (2011 م)، وقد نشر (باري وتني) دراسة ببليوغرافية عن المؤلفات الفلسفية واللاهوتية التي نشرت عن مشكلة الشر في ثلاثة عقود فقط، من (1960 ـ 1990)، فإذا هي تبلغ

يا ويله.. كيف يفكر هذا الذي يدعي العلم والفلسفة؟

فلو أنــه اكتفى بالثقــة في هــذا العظيم الــذي أبــدع هــذا الكون بمنتهى الدقة والحكمة واللطـف، لعـرف أنـه يسـتحيل عليه أن يفعل شيئا من دون أن تكون خلفـه حكمـة.. وعـرف أن الجهل بالحكمة لا يعني عدم وجودها.

هو يفعل ذلـك مـع من يعظمهم من العلمـاء والفلاسـفة والمفكــرين.. فيكتفي فقــط بعــرض أفكــارهم ونظريــاتهم، ويعتبر مجرد نسبتها إليهم كافية في إثباتها..

وهكذا لو أنه اكتفى بذلك منك، وراح يثق فيك، كما يثــق فيهم لوجد عشرات الحلول التي تحل لـه هـذه الـتي سـماها معضلة.

وأول ذلك النظر في الآثـار العظيمـة الـتي يحـدثها البلاء في النفوس والمجتمعات، فلولاه لم يكن هناك شـيء اسـمه صبر، ولا رحمة، ولا حزن، ولا ألم.. وكلها وإن كانت قاسية إلا أن لها آثارها في التهذيب والتربية والإصلاح.

ولو أنه عرف ـ من خلال ما أنزلته في كلماتك المقدسة على جميع أنبيائك ـ أن هذه الدار، ليست دار قرار، وإنما هي دار اختبـار، ولفـترة محـدودة، وأن ضـيافتك الحقيقيـة معـدة هناك، ولكنها معدة للطيبين فقط، أولئك الــذين ينجحــون في الاختبار.. لعرف أن الشر الذي يراه ليس سوى امتحـان مثـل تلـك الامتحانـات الـتي نجريهـا في الـدنيا، لاختبـار من نريـد توظيفهم في أي وظيفة من الوظائف.

فهل رأى العالم أجمع أحـدا يـرقى لأي منصـب، أو ينـال

4200 دراسة.

أي شـهادة، أو يطمـع في أي مكسـب من دون أن يبـذل أي جهد، أو يعاني أي عناء، أو يضحي أي تضحية؟

فإن كان هذا في مكاسب الدنيا الـتي تفـنى، فكيـف في مكاسب الآخرة التي لا تنتهي أبدا؟

لقد قلت تذكر لنبيك هذا بعد كل ذلك البلاء الذي عانـاه: {وَلَلْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: 4، 5]

وذكرت له آثـار مـا نـزل بـه في حياتـه من آلام، فقلت: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَـالًّا فَهَـدَى (7) وَوَجَـدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)} [الضحى:6-11]

وهكذا كان يمكن لذلك الجاحد أن يجد عشرات الحلـول لتلك التي سماها معضلة، ويتأدب معك، ومع خلق اللـه الـذي غواهم..

ولكنه يا رب لم يفعل.. لا لأنك لم تهده، أو لم تدله على السراط المستقيم.. وإنما لأنه لم يـرد أن يسـمع لـك، ولا أن يسلك طريقك المستقيم.

لقد امتلأ بحب نفسه وأهوائه، وقد رأى أنك عقبة تحـول بينه وبين تلك الأهواء الآثمة، فلذلك لم يجـد حلا للفـرار منـك سوى الجحود، واستعمال البلاء وسيلة لذلك.

هو مثل ذلك التلميذ الكسول الذي يبحث عن أي فرصة، ليفر من بين يدي أستاذه، فلذلك إذا ما سمع من أسـتاذه أي كلمة نابية، أو فـرض عليـه بعض الواجبـات الثقيلـة، راح يفـر

منه، ويتذرع بأن أستاذه لم يرد به إلا الشر، مع أنه لم يرد بـه إلا الخير.

أو مثل ذلك الذي يفر من الطبيب الجراح الذي يريـد أن يستأصل ما يؤذيه بحجة أن الجراح يحمل سكينا، وهـل يمكن للجراح أن يؤدي وظيفته من غير سكين؟

وهكذا لو تأمل هؤلاء في أي شيء.. فسيجدون رحمتـك محيطة بكل شيء.. حتى في ذلك البلاء الذي يتألمون.

لو أنهم فعلـوا ذلـك لحـولت ــ بفضـلك وكرمـك ــ النـار عليهم بردا وسلاما.. ولما شعروا بالآلام النازلة بهم.

وكيف يشعر بالآلام من يعلم أنه سيعود إليـك، ويسـكن دار السعادة التي لا نصب فيها ولا وصـب، ولا حـزن، ولا ألم، ولا شقاء؟

وكيـف يشـعر بـالآلام من يعلم أن الـدنيا كلهـا سـاعات محدودة أمام حبل الزمن الممتد إلى ما لا نهاية: {كَأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغ} (الاحقاف: 35)، {كَـأَنَّهُمْ يَـوْمَ يَرَوْنَهَـا لَمْ يَلْبَثُـوا إِلَّا عَشِـيَّةً أَوْ ضُـحَاهَا} (النازعات:46)؟

وكيف يشعر بالألم من يعلم أن كل ثانية تمـر في البلاء، يتضاعف فيها رصيد الفضل الإلهي الـدائم الممتـد، وقـد قـال نبيك يخبرنا عن ذلك: (يؤتى بأنعم أهـل الـدنيا من أهـل النـار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هـل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يـا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا من أهل الجنـة، فيصـبغ صـبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر

بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط)[1]

وقال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[2]

يا رب.. فأسألك أن تملأ حياتي بالنظر إليك، والاكتفاء بك.. فأنت الخير الأعظم الذي لا تحل الطمأنينة إلا لمن لجأ إليه، وسكن في حضرته، وسجد قلبه لعظمته.

اجعل يا رب قلبي ساجدا لك سجودا أبديا.. فلا نعمة إلا في السجود لك.. ولا فضل إلا في القرب منك.

1()رواه مسلم (8/135)

2() رواه الترمذي رقم (2403)

الجمال المطلق

إلهي.. يـا من تجلى جمالـه في كـل المـرائي.. فصـارت المرائي فانية في بحر إطلاقه.

أعوذ بك أن تقيدني المظاهر، أو تسجنني، أو تغـل يـدي عن رحلتي إليك، فأنا لا أريدها هي، بل أريدك أنت.

أنا لا أريد أن أسجن في سجون الأكوان المحدودة.. بـل أريد أن أرحل إليك.. إلى عالم الإطلاق الذي لا يعرف الحدود والقيود.

فأعوذ بك ـ يا رب ـ أن أكون كذلك المجنون الذي سجن في أحداق ليلى، فصارت حياته كلها ليلا..

وكيف لا تصبح حياته كلها ليلا، وهو لم يرحـل من عيـون ليلى إليك، ولم يسـتدل بهـا عليـك، ولم يعلم أن وراء عيونهـا التي أسرته عالما كبيرا من الجمال لا حدود له..

ولم يعلم أن عيون ليلى ليست سوى قطرة من محيـط جمالك الذي لا حدود له.

ولم يعلم أن عيـون ليلى لم تكن سـوى قنطـرة توصـل قلبه بالمحيط.. لتخرجه من عـالم الجمـال المقيـد إلى عـالم الجمال المطلق.

ولو أنه علم ذلك ـ يارب ـ لعـاد إليـه عقلـه، بـل لأضـاف لعقله عقولا كثيرة.

فالجمال المطلـق ــ الـذي هـو جمالـك يـا رب ــ يجعـل

صاحبه كمرآة كبيرة عاكسة تمتد كلما امتد النظر، وتتسع كلما اتسعت االهمة.

يارب.. فأسألك أن تسقيني من شراب محبتك ما يغنيني عن كل شراب..

وأسألك أن تسقيني بكؤوس الأكوان.. فقلبي أوسع من أن تكفيه تلك الأكواب الصغيرة.

وأسألك أن تسقيني بكأس الإطلاق، فقلبي الذي عرفك لم يعد يرتضي سكنى الجحور والوكور والقصور.. بل يريد أن يمتد بامتداد جمالك الذي لا حدود له.

يا رب.. وأسألك أن تجعل كل جوارحي قلوبا وعيونا لتتملى حسنك الزاهي في كل شيء.. فلا ترى شيئا إلا وتشم فيه عطر جمالك.

يا رب.. أنا أعلم أن عظمتك وعزتك تأبى أن يرى جمالك إلا المخلصون الصادقون، أولئك الذين استأثرتهم، وطهرتهم، وملأتهم سكينة وهمة.

فاجعل قلبي الذي لا يتقلب إلا بتقليبك طاهرا ممتلئا بالصدق والإخلاص والسكينة والهمة حتى يصبح محلا صالحا لتجلي جمالك.

فلا يمكنني يا رب أن أحبك الحب كله، قبل أن تطهر قلبي من غيرك.. فأنت لا ترضى الشريك، والقلب الصادق لا يتسع للشركاء.

يا رب.. لقد قلت في كلماتك المقدسة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: 54]

فاجعلني من هؤلاء الذين شرفتهم بحبك.. أولئـك الـذين تطهرت نفوسهم، وارتقت أرواحهم إليك، بسـبب حبهم لـك.. فحبك يا رب أكبر مدرسة للتربية والأخلاق والهمة العالية.

حبك يا رب هو البلسم الذي يداوي الجراح، وهـو الرقيـة التي تغني عن الرقاة، وهو الدواء الذي لا يكون معه داء..

حبك يـا رب هـو السـعادة الـتي لا شـقاء بعـدها، وكيـف يشقى من حبيبه صاحب الجمال الـذي لا يفـنى، ولا يحـد، ولا يحصر؟

حبك يا رب هو الإكسير الأحمر الذي يرفـع الإنسـان من عالم الجسد الممتلئ بالطين والوحـل والحمـأ المسـنون إلى عالم الأرواح التي تسبح في بحر الجمال المطلق.

حبك ـ يا رب ـ هو الجنة الحقيقية.. والمعجلـة لمن شـاء أن يدخلها..

والبعد عنك ـ يـا رب ــ هـو جهنم الحقيقيـة.. فمن ابتعـد عنك عذب حتى لو سكن القصـور، ووفـر لطينـه كـل أسـباب الراحة والسعادة.

وكيـف تسـعد روحـه، وهـو يسـجنها في سـجون الطين، ويقيدها بذلك الجمال الوهمي الذي تحول إلى وثن يعبده من دونك.

هو يا رب يختصر حقيقته في جسـده، ولـذلك راح يلـبي

ما يطلبه جسده، وينسى روحه التي لا راحة لها إلا معــك، ولا سعادة لها إلا في الرحلة إليك، ولا طمأنينة لها إلا في لقائــك، والاستقرار في جوارك.

يا رب.. أنا أعلم رحمتك ولطفك ورفقك بعبادك وتربيتك لهم.. فلذلك تتيح لهم الفرص ليختاروا منهــا مــا شــاءوا.. إلى أن يصلوا إليــك بعــد أن يعلمــوا أن مــا عــداك ســراب ووهم.. وأنك أنت وحدك الحق.

لقد ذكرت ذلك في كلماتــك المقدســة، فقلت: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْـآنُ مَـاءً حَتَّى إِذَا جَـاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور: 39]

فــأعوذ بــك يــا رب أن أختــار غــيرك، أو أعــذب بتلــك الاختيارات المشؤومة.. أو أقضي عمري وأنا أتجول في عالم الجمال الفاني الممتلئ بالقيود والأغلال..

بل اجعلني أنجذب إليك، وأكتفي بــك من غــير أن أتلطخ بتلك القيود والسجون والأوهام..

يا رب فاسقني من بحر الحقيقــة.. وأعــوذ بــك من بحــار الأوهــام والســراب.. فأنــا لا يــروي قلــبي وروحي وســري إلا أنت.. فكن أنت غــايتي ومقصــدي وقبلــتي وفروضــي ونفلي وحديثي وشغلي.. وكل شيء لي.

الخلاق البديع

إلهي.. أيها الخالق البارئ المصور.. فاطر السموات والأرض.. وبديع كل شيء.

كنت اليوم خارج البيت، أتجول في حقولك التي أبدعتها.. كانت الشمس مشرقة.. وكانت الطبيعة تسبح بحمدك، وترتل آيات جمالك الذي لا حدود له بلسان أزهارها وعطورها وبراعم أشجارها وثمارها..

وفجأة غابت الشمس، وامتلأت السماء بالسحب.. وما هي إلا لحظات حتى تنزلت أمطار جميلة غيرت المشهد تماما.. لكن إلى صورة لا تقل جمالا عن صورته الأولى..

لقد كانت الأمطار وهي تتهاطل بموسيقاها الجميلة التي اختلط فيها صوت الرعد مع لمعان البرق تسبح جميعا بحمدك، وتحدث في النفوس آثارا جديدة تدل على إبداعك وجمالك وتنوع مظاهر قدرتك وتصويرك.

وبعد لحظات.. هبت رياح شديدة.. ثم تنزلت بعدها ثلوج كثيفة، كست الأشجار بحلتها البيضاء الجميلة.. وتحول الحقل في ساعات محدودة إلى سجادة بيضاء ناصعة ممتلئة بالجمال.. وخرج الصبية مع آبائهم وأمهاتهم يفرحون ويمرحون، ويقذف بعضهم بعضا بكرياته اللطيفة.

وهكذا كنت أرى الجبال منها {جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ } [فاطر: 27]

وكنت أرى الحيوانات منهم { مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } [النور: 45]

وكنت أرى {جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [الأنعام: 141]

وكنت أرى {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا } [الزمر: 21]

وكنت أرى البشر مختلفي الألوان والأشكال، واللغات والطباع.

وهكذا كنت أرى تنوعا كبيرا في إبداعك يا رب.. فأنت الذي خلق كل شيء وبرأه وصممه وصوره ليملأ حياتنا بكل ألوان البهجة، وليصرف عنا كل ألوان الملل، ولنعرف بعد ذلك كله مدى قدرتك التي لا حدود لها.

يا رب.. لقد قال عبدك الصالح يذكر ذلك في مناجاته لك: (إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء) [1]

فأسألك يا رب ألا أكون كذلك المشاهد البسيط الذي يستغرق في مشاهدة أفلامه متأثرا بها، منفعلا لها، غافلا عن المصمم والمخرج والمهندس والمبدع الذي أخرجها بتلك الصورة.

أسألك يا رب أن أرى في كل شيء لمسات إبداعك

---

(1) إقبال الأعمال ص 348.

وتصميمك وتصويرك.. حتى تكـون تلـك المشـاهد زادا لقلـبي يرفعني إليك، ولا يحبسني في سجون الأشياء.

يا رب لقد وصفت عبـادك الصـادقين من أولي الألبـاب، فقلت: { إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًـا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَـذَا بَـاطِلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَـذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 190، 191]

يــا رب.. فكمــا جعلت اختلاف الليــل والنهــار، وخلــق السموات والأرض معارج لترفعهم بها إليك، فاجعلها معراجي إليك.

وارفع درجتي ـ يا رب ــ لأرى من فضـلك مـا حجب عن خلقـك.. فـأنت القـادر على كـل شـيء، وقـد قلت عن نبيـك وخليلك إبراهيم: { وَكَذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: 75]

وقلت عن خاتم أنبيائك وسيدهم: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْـرَى (13) عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْـدَهَا جَنَّةُ الْمَـأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (18) } [النجم: 13 - 19]

يا رب.. وأعوذ بك من الحجاب الذي وقع فيـه الغـافلون حين راحــوا بعقــولهم الــتي أنت أبــدعتها يفرضــون عليــك القوانين التي توهموا أنهم اكتشفوها..

لقد راح وهمهم يخبرهم أنـه لا جنـة ولا نـار، ولا بعث ولا حساب، ولا موازين ولا سراط.. وأن كل مـا أخـبر بـه رسـلك

وهم وأساطير..

عجبا لهم.. ولعقولهم القاصرة.. فهـل يمكن لمن صــمم هـذا الكـون البـديع، أن يعجـز أن ينشـئ كونـا آخـر، أو حيـاة أخرى، بقوانين غير هذه القوانين؟

فهل المصمم والمهندس هـو الـذي يفـرض إبداعـه على تصميمه أم أن الإبداع هو الذي يفرض نفسه؟

وهل الرسـام هـو الـذي يختـار ألوانـه، والمشـاهد الـتي يلهمه إياها ذوقه، أم أن الألـوان والمشـاهد هي الـتي تفـرض نفسها عليه؟

وهل الشاعر هو الذي ينتقي الألفاظ والأوزان والقـوافي والمعاني التي يخرج بهـا قصـيدته.. أم أنهـا هي الـتي تفـرض نفسها عليه؟

ويــل لهم.. ولعقــولهم القاصــرة.. فلــو تــأملوا قليلا في الكون، ورأو مظـاهر التنـوع فيـه، وتـأملوا في الأحيـاء، ورأوا كيـف أن بعضـها يعيش في البحـر، وبعضـها يعيش في الـبر، وبعضها يطير في السماء.. وبعضها صغير جدا، وبعضـها كبـير جدا..

ولـو عـادوا لموسـوعات الحيـاة والأحيـاء لوجـدوا ملايين الأنواع التي تختلف في كل شيء..

فهـل يعـز على من خلـق كـل هـذا، أن يحـيي الخلـق بقوانين أخرى، وسنن جديدة، وهيئـات هـو الـذي يختارهـا، أم أن القوانين التي وضعها أول مرة، ستفرض عليه كل مرة؟

ويل لهم.. وويل لعقولهم القاصـرة.. ألم يـروا إلى مبـدأ

خلقهم حين كـانوا يسـبحون كالحيتـان في البحـر، ثم فجـأة خرجـوا إلى الـدنيا، ليتنفسـوا هواءهـا، ويتحولـوا من كائنـات بحريـة إلى كائنـات بريـة.. أيعجـز الـذي فعـل هـذا بهم، أن يحييهم حياة جديدة، لا برية ولا بحرية؟ أم أن العقل لا يحتمل إلا الحياتين فقط؟

ويـل لهم.. ألم يعلمـوا أن الـذي أبـدع الزهـور الممتلئـة بالأريج العطر، والفواكـه الممتلئـة بالمـذاق الطيب، والطيـور الجميلة صـاحبة الأصـوات العذبـة.. لن يعجـز أن ينشـئ جنـة لعباده الصالحين تحوي أصناف الجمال مـا رأوا مثلـه ومـا لم يروا، جزاء لهم على صدقهم وصلاحهم؟

ويل لهم.. ألم يعلموا أن الذي خلـق الـبراكين والـزلازل والحيات والعقارب لن يعجز أن يبني دارا ممتلئة بكل أصناف العذاب لأولئك المجرمين المستبدين الظلمة الذين اسـتكبروا عليه، وأذاقوا خلقه ألوان الهوان؟

يـا رب.. طهـر عقلي من أن تتسـرب إليـه أمثـال هـذه الضلالات.. فأنت الهادي الذي تنعم على الصادقين بالهدايـة.. كما أنك المضل الذي تـترك المنحـرفين الممتلـئين بـأهوائهم لضـلالهم وغيهم، لأنهم تكـبروا أن يسـتمعوا إليـك، أو يـذعنوا لرسلك.

يا رب.. فاملأ حياتي بألوان هدايتك.. حتى أمتلئ تعظيما لك.. ونور بصيرتي حتى أرى كل شيء منك وبك وإليك.

الإرادة النافذة

إلهي.. يـا صـاحب الإرادة النافـذة، والمشـيئة القـاهرة، والقضاء المحكم.

لا شريك لك، ولا نظير.. ولا حـاكم معـك، ولا مـدير.. ولا راد لأمــرك، ولا معقب لحكمــك، ولا تُسـألُ عن فعلــك، وهم يسألون.

وكيــف تسـأل عن فعلــك، أو يعقب أحــد على حكمــك، وأنت البديع الذي أبـدع كـل شـيء، والحكيم الـذي أحكم كـل شيء، والعليم الذي وسع كل شيء علما؟

يــا رب، فأسـألك أن أتحــرك في مجــال إرادتـك الــتي ترضـيك، وأعــوذ بــك أن أتحــرك في مجــال إرادتـك الــتي تسخطك.. وأسألك أن أكون من الذين أردتهم، ورضيت عنهم وأكــرمتهم، وأحببتهم، فكــانوا في كــل محــل تتــنزل فيــه مرضاتك، واجتنبوا كل محل يكون فيه سخطك.

وأعوذ بك يا رب أن أكون من أولئـك المشـركين الـذين تعللوا بإرادتك على اقتحام معاصيك، وقـالوا: { لَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [النحل: 35]، وقالوا: { لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَـا أَشْـرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَـا مِنْ شَـيْءٍ} [الأنعـام: 148]، وقـد رددت عليهم بقولك: {هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَـا إِنْ تَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام: 148]

صدقت يا رب.. فما ذاك إلا كـذب منهم وتخـريص.. وإلا فلم يسـعون في أرزاقهم مـع أنهم يعلمونـك أنـك الـرزاق؟..

ولم يســعون في علاج أنفســهم مــع أنهم يعلمــون أنــك الطبيب؟.. ولم يسعون في حفـظ أنفسـهم من المهالـك مـع أنهم يعلمون أنك الحفيظ؟.. لم لم يوكلوا كل ذلك إليـك كمـا أوكلوا أمر الهداية والضلال؟

نعم.. هم لم يشركوا إلا بمشيئتك، وكيف يخرج أحـد من مشيئتك؟

لكن كان في إمكـانهم أن يختـاروا مشـيئة الهدايـة بـدل مشيئة الضلال.. ومشيئة السعادة بدل مشيئة الشقاء.. لكنهم لتخرصهم وكذبهم على أنفسهم، واتبـاعهم لأهـوائهم اختـاروا المشيئة التي تسخطك.

هم في ذلــك مثــل ذلــك الأســتاذ الــذي وضــع امتحانــا لطلبتــه.. هــو يعــرف مســتوياتهم، ويمــيز المجتهـد منهم من الكسـول، ولكنـه لعدلـه بـدل أن يحكم لكـل واحـد منهم بمـا يعلمــه راح يختــبرهم، ويــترك لهم الفرصــة ليختــاروا أحــد النجدين.. نجد النجاح، أو نجد الرسوب.

فمن اختار منهم نجد النجاح رضي عنـه، وقربـه، ووهبـه من التزكية ما يرفع مستواه، أو يؤهله للوظائف الكريمة.

ومن اختــار منهم نجــد الرســوب، أو قعــد من دون أن يجيب.. فالأستاذ كذلك لا يتدخل في شـأنه.. لأنـه وإن خـالف رضاه، لم يخالف إرادته..

ذلك أنه أراد تمييز الصـادقين من تلاميـذه من الكـاذبين، ولــذلك منح الحريــة للجميــع ليعــبروا بمحض إرادتهم، لا بمــا يملى عليهم.. فلا يمكن لأحد أن يعبر عما تختلج بــه جوانحــه، تحت سيف الإكراه والقهر.. ولـذلك لم يخــرج الراســبون عن

مشيئته، وإن خرجوا عن رضاه.

لذلك ـ يا رب ـ كـان الـذين يريـدون منـك أن تتخلى عن مشيئتك وإرادتك حتى تتحقق لهم الحرية، واهمـون وكـاذبون على أنفسـهم.. ذلـك أنهم يشـعرون بالحريـة، ويفرقـون بين أعضـائهم الـتي تعمـل من دون إرادتهم، وأعضـائهم الـتي لا تتحـرك إلا برضـاهم ورغبتهم.. ويعلمـون أنـك لا تحاسـبهم إلا على ما كسبت أيديهم، وتحركت به رغباتهم.

يـارب.. هم لجهلهم بـك.. يتصـورون أن كمالـك في أن تسلم الشر لإلـه آخـر يـديره، وتتمحض أنت للخـير المجـرد.. ويحصل بينكما الصراع..

ويــل لهم، ومــا أضــعف عقــولهم. أليس من الحكمــة والرحمة واللطف أن يكـون كـل شـيء بيـدك.. فـأنت الخـير المطلق.. وأنت الذي لك الأسماء الحسنى والكمال الأعظم.. وأنت الذي لم ترد الشر ابتداء، وإنما كـان الشـر نتيجـة لتلـك النفوس الـتي أبت إلا أن تختـار هـذا السـبيل.. وأنت بكرمـك ولطفك لا ترد من رغب في شيء عن رغبته.

فعندما استكبر إبليس عن السجود لآدم كان في إمكانك أن تفـرض عليـه سـلطتك وتجـبره على السـجود.. لكنـك لم تفعل.. بل تركته لحريته..

بل كنت تريد أن يظهر بذلك المظهـر حـتى يكشـف عن حقيقته التي كانت مملوءة بالكبر والحسد.. ولولا ذلـك الأمـر ما ظهر كبره ولا حسده، ولظل يخدع غيره بعبادته وتقواه.

وهكــذا عنــدما طلب أن يــؤخر ليــوم البعث، تركتــه، وأعطيته الفرصة، وجعلته وسيلة من الوسائل التي تمـيز بهـا

الطيب من الخبيث..

لقد صار مثل ذلـك المغنـاطيس الـذي ينقي الـذهب من الشوائب الـتي لا يحـق لهـا أن توضـع مـع المعـادن النفيسـة والحجارة الكريمة.

وهكـذا كـانت مشـيئتك رب في أن تضـع معـالم الهدايـة والضلال، فقد أرسلت الرسل الذين يبينون الحقـائق للنـاس، وتركت في نفس الوقت الفرصة لمن يضلهم، لأنـه لا يتحقـق التمييز إلا بتوفر السـبل الكثـيرة الـتي تجعـل الإنسـان يختـار بمحض إرادته ما تميل إليه نفسه..

وعندما يختـار، لن يخـرج اختيـارك.. ولن ينضـم إلى إلـه الشر كما يقول المشركون.. بل يظل عبدك.. وتظـل إرادتـك نافذة فيه.

لقد ذكـرت ذلـك يـا رب فقلت: { إِنَّ هَـذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَـا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمًـا حَكِيمًـا (30) } [الإنسـان: 29 -ـ 31]، وقلت: { إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْـرٌ لِلْعَـالَمِينَ (27) لِمَنْ شَـاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَـا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ (29) } [التكوير: 27 - 29]

صــدقت يــا رب.. فهــدايتك أكــرم من أن تتــنزل على المنحرفين والمستكبرين.. أولئك الـذين نصـبت لهم العقبـات التي تحول بينهم وبين الهداية إلا بعد أن يتخلوا عن كبريــائهم وطغيانهم وجبروتهم.

ولذلك كنت المنصرف عنهم قبل انصرافهم عنك.. فأنت الـذي لم تـرد أن يجـاوروك في عـزك، أو يجـاوروا المؤمـنين

الطاهرين، وهم متلطخون بأوزار خبثهم.

لـذلك قلت يـا رب عنهم: {سَأَصْـرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ } [الأعراف: 146]

فـأنت الـذي صـرفتهم وأضـللتهم.. لأنهم لم يكونـوا أهلا لعزك ولطفك وهدايتك.. ولو كانوا أهلا لذلك لتخلـوا عن تلـك الطباع التي تحول بينهم وبينك.

إن مثلهم يا رب مثل رجل دعا قوما إلى وليمـة، فحضـر الأمراء والعلماء والحكماء، وكـانوا كلهم بأحسـن مظهـر.. ثم جاء بعض الناس بثيـاب قـذرة، تفـوح منهـا الـروائح الكريهـة، وكان لسانه ممتلئا بالفحش والبذاءة.. فهل يمكن لمثـل هـذا أن يشارك في تلك الوليمة؟.. وهل يمكن لأحد من الناس أن يرضى بالجلوس بجانبه؟

لكنه لو ذهب، وتطهر، وغسل ثيابه، وطهر لسـانه، وعـاد إلى الوليمة لم يكن للداعي الكريم أن يرفضه، ولا أن يرده.

وهكذا الأمر يا رب.. فأنت لم ترد أولئك لذواتهم، وكيـف تفعـل ذلـك وأنت الـذي خلقتهم ورزقتهم ووفـرت لهم كـل الحاجات، ولكنك فعلت ذلـك بهم لمـا اختـاروه لأنفسـهم من الكـبر والضـلال.. ولـو أنهم تخلـوا عن ذلـك لكنت أول من يقبلهم، فهـدايتك شـملت كـل شـيء، ورحمتـك وسـعت كـل شيء.

يـــا رب.. فاجعـــل رضـــاي في رضـــاك، وســـخطي في

سـخطك، حـتى لا أتحـرك إلا في وفـق مشـيئتك الـتي تحب، واجعلني أعرفك كما أنت لا كما يقول الجاهلون الذي صــنعوا إلههم بـأهوائهم، وعجنـوه بعقـولهم، وقاسـوه على أنفسـهم، فأنت أعظم من كل شيء، ولا يقاس بك شيء.

قدس الأقداس

إلهي.. أيها القدوس الذي لا تدركه الأبصار، ولا الأوهام، ولا الخيال، ولا العقول.

إلهي يا من جل عن الشبيه والنظير، فـ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]

تعاليت يا رب في قدسك، فلا تعرف إلا بجلالك وكمالك وعظمتك، ولا يرتد البصر الطامع في رؤيتك إلا خاسئا كليلا حسيرا.

وكيف يطمع أحد في رؤيتك وأنت الذي تقول: { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام: 103]؟

فتعاليت أن تدركك الأبصار، وكيف تدركك، وهي لا تدرك إلا الأجسام والألوان والأحجام.. وأنت قد تعاليت على ذلك كله.

فأعوذ بك يا رب أن أقع في حجب الأوهام والكثافة التي وقع فيها المحجوبون عنك وعن عظمتك، فراحوا يضعونك في قوالب الأجسام، ويفرضون عليك ما يفرضونه على الأجسام من الحدود والقيود والأغلال.

أعوذ بك يا رب أن أتوهم لك المكان، وكيف تحتاج إلى المكان، وأنت خالق المكان؟.. وكيف توصف بالجهات، وأنت خالق الجهات؟

ويل لهم أولئك الذين أوقعتهم الأوهام في أغلال الجهات والأمكنة.. ألم يقرؤوا قولك، وأنت تصف نفسك: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } [الحديد: 4]؟

ألم يقــرؤوا قولــك، وأنت تصــف معيتــك الدائمــة لكــل شيء: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَــةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7]؟

ألم يقرؤوا قولك، وأنت تصف قربك منهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَـا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق 16]، وقولك: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: 85]؟

ألم يقــرؤوا قولــك، وأنت تــذكر تعاليــك عن الجهــات وقيودهــا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْـرِقُ وَالْمَغْـرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْـهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]؟

ولم يكتفــوا بــذلك رب، بــل راحــوا يصــفونك بصــفات الأجســام، فيجعلونــك صــاحب يــدين، وســاقين، ووجــه، وفم، وأضراس، وحقو..

وراحو يفرضـون عليـك مـا يفرضـونه على الأجسـام من الطول والعرض والحجم والكتلة..

وراحوا يعتبرون أن العـرش يثقـل على حملتـه بسـببك، وأنــه يئــط من ثقلــك.. وأنــك تجلس وتســتلقي عليــه، وتضـع قدميك على الكرسي كما يفعل الملوك.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يذكرون أنـك تـنزل وتصـعد، وتجري وتهرول، وأنك تضحك وتبتسم، وأنـك تتكلم بـالحروف والأصوات مثلما يتكلم عبادك.

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا يصفونك بأنك تلبس الثيـاب، وتضع التيجان، وتنتعل النعال.. وأنك تدنو من العباد كما يـدنوا بعضهم من بعض، وأنك تلامسـهم، ويلامسـونك.. كمـا تلامس الأجسام بعضها بعضا.

ولم يكتفوا بذلك.. بـل راحـوا يعتـبرون مـا يذكرونـه من أوهام وخرافات توحيدا وسنة، وأن خلافهما بدعة وضلالة.

ويـــــل لهم.. وأين عقـــــولهم.. وأين هم من كلماتـــــك المقدسة التي نزهتـك وقدسـتك.. وحـذرت من الوقـوع فيمـا وقع فيه المنحرفون عنك من البحث فيما لا تطيقـه عقـولهم، ولا تدركه أوهامهم ولا خيالهم.

لكنهم رب أعرضـوا عنهـا، وراحـوا يؤولونهـا، ويتبعـون المتشابه، فزاغت قلوبهم وعقـولهم عن الحقـائق، فصـوروك بصورة الوثن، وعبدوك كما يعبد المشركون أصنامهم.

أعــوذ بــك يــا رب.. أن أقــع في تلــك الحجب.. أو أدع لخيـالي وعقلي وقياسـي أن يتسـرب إلى قـدس أقداسـك.. فأنت لا تعرف إلا بعظمتك وجلالك الذي لا حدود له.

ولا طاقة للعقول إلا بمعرفة أسمائك الحسـنى وصـفاتك العليا.. فهي البحر الذي نسبح فيـه للوصـول إليـك، والتعـرف عليك.

يــا رب.. فأســألك أن تملأ قلــبي بتنزيهــك وتقديســك

وتسبيحك حتى لا تتسرب إلي تلك الأوهام، فأحجب بها عنـك، فلا يعرفك إلا من قدسك، وسبح بحمـدك، وملأ روحـه وكيانـه بتعظيمك.

إلهي.. لقد كان السبب الأكبر في كل مـا حصـل لأولئـك المشـبهين والمجسـمين الـذين ابتعـدوا عنـك إعراضـهم عن كلماتك المقدسة، وعن أنبيائك وأوليائك الـذين جعلتهم هـداة إليك..

فأسألك يا رب أن أتمسك بحبلهم، وأركب سـفينتهم، ولا أسمع لغيرهم.. لأنهم مصدر الحق الأوحـد، وهم الـدعاة إليـك بإذنك، وعلى بصيرة.

فـارزقني ــ يـا رب ــ من المعرفـة مـا رزقتهم، واحفـظ عقلي من الأوهام، وقلبي من الأغيار، فلا يعرفك إلا من تأدب بـآداب العبوديـة، وخلص عقلـه من البحث فيمـا لا يعنيـه، ولا قدرة له عليه، وخلص قلبـه من كـل الأغيـار، فمعرفتـك أجـل من أن تختلط مع الأغيار.

يا رب.. وهب لي كمال تنزيهك وتعظيمك، حتى أسـبحك في كل شيء، ومع كل شيء، فأنت الأكبر والأعظم..

أنت أكبر وأعظم من كل الأوصاف.. وكيف توصف وأنت الذي لا حدود لك؟.. وكيف تقيد بقيـود الكلمـات، وأنت الـذي خلقتها؟

لذلك نستغفرك رب من تقصيرنا في وصفك.. لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

الغني الحميد

إلهي.. أيها الغني الحميد.

ما أعجب أمر خلقك، فقد رأيتهم قبل أيام يتحدثون عمن يطلقون عليهم أغنى الأغنياء، ويذكرون مراتبهم، وثرواتهم، وكيفية تعاملهم مع أموالهم..

ورأيت مع حديثهم اللعاب وهو يسيل من أفواههم عند ذكر الأموال.. كما شممت روائح الحسد الكريهة تنبعث من قلوبهم عند ذكرها، وكأنهم يرددون ما قاله المغرمون بأموال قارون: {يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]

لقد قلت لهم حينها: {وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} [القصص: 80]، لكنهم لم يلتفتوا لي، ولم يسمعوا كلامي، فقد كان الحجاب الذي أسدله حب المال عظيما، منع آذان قلوبهم من أن تعي ما أقول، ولا أن تفهم ما أعني..

وبعد أن فارقتهم يا رب رحت أفكر في تلك العقول التي تنبهر لذلك الغنى المجازي المحدود، وتنسى غناك المطلق الذي لا حدود له.

وهل يمكن أن يقارن غنك بغناهم أو غنى أحد من خلقك.. فإن كان أولئك الذين انبهروا بغناهم يملكون ملايين المثاقيل من الذهب، ومثلها من الفضة، ومثلها من اللآلي، فأنت تملكهم، وتملك ما يملكون، ويمكنك في لمح البصر، أو ما دون ذلك أن تجعل الكون كله مصاغا من الذهب

الخــالص.. وقــد قلت في كتابــك الكــريم: {وَلَـوْلَا أَنْ يَكُـونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُـرُ بِـالرَّحْمَنِ لِبُيُـوتِهِمْ سُـقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} [الزخرف: 33]

فالذهب والحديـد والـتراب عنـدك سـواء.. وقـد وصـفت أمــرك فقلت: { إِنَّمَــا أَمْــرُهُ إِذَا أَرَادَ شَــيْئًا أَنْ يَقُــولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: 82]

ولذلك فإن المستغني بك، والقريب منك أغــنى من كــل أولئــك الــذين انبهــروا بهم، وكيــف لا يســتغني، وأنت الغــني المغني الذي لا يرد من لجأ إليه، ولا يفتقر من استغنى به.

ولكن المقربين منك، لا يهتمون بمثـل تلـك الأمـور، لأنـه يكفيهم أنت.. ويكفيهم رضاك.. ويكفيهم أن يقفــوا بين يــديك يناجونك، ويسـمعون كلماتـك الـتي تخـاطبهم بهـا، فهي أغلى عندهم من كل جواهر الدنيا.

لقــد عــدت يــا رب، وتــأملت في أحــوال أولئــك الــذين وصفوهم بالغنى، فوجدتهم مع تلك الثروات فقر مطبق، ومن كل الجهـات.. فهم كغـيرهم مصـاديق لقولـك: {يَاأَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]

لقـد وجـدت الأمـراض تنتـابهم، وتنهش أجسـادهم مثـل سـائر النـاس.. ورأيتهم يعـذبون بهـا، ويتـألمون، من غـير أن تغني عنهم ثروتهم شيئا.

ورأيت الغضــب ينتــابهم، ويملأ حيــاتهم بالكــدر.. ورأيت الضيق والضنك في ملامح وجوههم من غير أن تسـتطيع كـل تلك الثروات إزالته عنهم.

ورأيت الشيب يسرع إلى رؤوسهم مثـل سـائر النـاس.. ثم ما أسرع ما تمر الأيام لتضعهم مع العجزة والشيوخ الذين بلغـوا أرذل العمـر من غـير أن تفلح أمـوالهم في ردهم إلى شبابهم وقوتهم.

ورأيت أنه مع كون موائدهم ممتلئة بصنوف الطعـام، إلا أن الشبع سرعان ما يدب إليهم، ويمنعهم من الاستمتاع بكل مـا وضـع في تلـك الموائـد.. بـل رأيت أنهم لإلفهم لتلـك الصنوف، صار مذاقها عندهم لا يختلـف عن مـذاق الخـبز في فم الفقير.

لـذلك يـا رب.. شـعرت بفقـرهم وفـاقتهم الشـديدة.. وعلمت أنك أنت الغني الوحيد، وما عداك فقير..

فأنت الذي لك الوجود الأصلي الذي لم تسـتفده من أي جهـة.. وكـل من عـداك مفتقـر في وجـوده إليـك، ولـولا أنت لظـل في ظلمـات العـدم، لم يحـظ بـأن يشـم أريج عطـر الوجود.

وأنت الحي الذي يسمع ويبصر ويعلم بكل شيء من غير أن يفتقر إلى تلك الآلات والوسائل والأدوات الـتي نسـتعملها لذلك.. ونحن الفقـراء الـذين نحتـاج إلى الوسـائل والأدوات.. والـتي قـد يصـيبها العطب، فيتحـول بصـرنا عمى، وسـمعنا صمما، وعلمنا جهلا.

وأين سمعنا من سمعك، وأين بصرنا من بصـرك.. وأنت يستوي عندك كل شيء، فلا فرق عندك بين الذرة والمجـرة، وبين الصغير والكبير.. بل الكل عندك سواء.

وأنت يـا رب الغـني بـذاتك عن أن يتعلـق بـك الزمـان

والمكان.. فكلاهما من خلقك، ونحن يـا رب المقيـدون بقيـود الزمان والمكان..

وأنت يـا رب الغـني عن الأحـداث والتغـيرات.. ونحن يـا رب عرضة لها، نفرح لما يفرح منها، ونحزن لما يحزن..

يا رب لا يمكنني أن أعدد حقائق غناك، وكيف أعد مــا لا يمكن عــده؟.. وكيــف أحصــي أملاك من يملــك الســموات والأرض، وكل شيء.. بل إن السموات والأرض ليســتا ســوى دينار من كنوز غناك الذي لا حدود له..

يـا رب.. فـأغنني بالافتقـار إليـك عن سـواك، واجعلـني أنظر إلى غناك، وأكتفي به، حتى يـزول من قلـبي كـل تعلـق بأولئك الفقراء الذين توهموا أنفسهم أغنياء.. وحتى يكون كل توجهي إليك، لا إلى تلك اللعب التي يملكها أولئك الواهمـون، والتي سرعان ما تذهب عنهم، أو يذهبون عنها.

يا رب.. لقد قلت في كلماتـك المقدسـة: { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَــأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَــوْمٍ آخَــرِينَ } [الأنعــام: 133]، وقلت: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْـقٍ جَدِيـدٍ (16) وَمَـا ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) } [فاطر: 15 - 18]

وإني أعوذ بـك يـا رب أن تسـتبدل بي أحـدا من خلقـك، فأنا عبـدك الفقـير الـذليل الحقـير الـذي لا يمكنـه أن يتنفس الهــواء، أو يشــرب المــاء، أو يأكــل الطعــام، أو يســير في الأســواق، أو تتقلب بــه الــدنيا، دون أن تمــده أنت بعطائــك ورزقك وجودك وفضلك.

يا رب فاجعلني أشعر بفضلك علي في كل ذلـك.. حـتى أعلم أنه لا خير إلا منك، ولا فضـل إلا بـك.. وأنـك أنت الغـني الحميد.

يا رب أعوذ بك أن أكون كأولئك المغفلين الذين توهمـوا أنهم ينفعونك بعبادتهم، أو يضرونك إن تركوهـا، فـأنت يـا رب الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً عن غيرك؟

يـا رب لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تـذكر غنـاك وفقرنا، وتدعونا إلى مد أيدينا إليـك، لا إلى الأشـياء الـتي هي من صـنعك: (يـا عبـادي كلكم جـائع، إلا من أطعمتـه، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عـار، إلا من كسـوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليـل والنهـار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاسـتغفروني أغفـر لكم، يـا عبـادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعـوني، يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم كـانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلـك في ملكي شـيئا، يـا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجـر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم قـاموا في صـعيد واحـد فسألوني فأعطيت كـل إنسـان مسـألته، مـا نقص ذلـك ممـا عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحـر، يـا عبـادي إنمـا هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياهـا، فمن وجـد خـيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[1]

فأسـألك يـا رب أن تملأ قلـبي بهـذه الحقـائق النورانيـة

[1] صحيح مسلم 4/1994 ح(2577)

الـتي يـدل عليهـا كـل شـيء، حـتى أعيش في رحـاب غنـاك المطلـق، غنيـا عن أن أمـد يـدي لأولئـك الممتلـئين بـالفقر والحاجة والضعف.

وأعوذ بك يا رب أن تختبرني بما لا أطيق من الدنيا التي قد تصرفني عنك.. فاصرف لي منها ما أحتاجـه، ومـا يغنيـني عن مد يدي لخلقك، واصرف عني ما يؤدي إلى البطر والكبر والغرور.. فأنت تعلم ضعفي، فـاحفظني من كـل مـا يبعـدني عنك، أو يصرفني عن بابك.. فبابك عندي هو الغـنى المطلـق الذي لا أحتاج معه لغيره.

الحقائق والرموز

إلهي.. أيها القدوس المتعالي على كل شيء.. حـتى عن تعريفنا به، ووصفنا له.

أعوذ بك من الجهل الذي يجعلـني عبـدا رقيقـا للألفـاظ، فأجعل منها شبكة لاصطياد الحقائق، فالحقائق أعظم من أن تصـطاد بالألفـاظ.. والحقـائق أعظم من أن تعـبر عنهـا تلـك الرموز التي لم توضع لأجلها، وإنما وضعت لغيرها.

أعوذ بك يا رب أن يحصـل لي مـا حصـل لأولئـك الـذين راحوا يعرفونك من خلال الألفاظ، فانتزعوا من عظمتـك كـل معاني القداسة، وشبهوك بخلقك، وجعلـوا منـك وثنـا، لا إلهـا عظيما قدوسا متعاليا عن كل الأوهام والخيالات.

يا رب لقـد راحـوا لغفلتهم يـذكرون أن لـك يـدين.. وأن فيهما أصابع.. وأنك تمسك بهما الأشياء.. وذلك عنـدما تركـوا الحقـائق الـواردة في ذكـرك لليـدين في كلماتـك المقدسـة، وتشبثوا بالألفاظ..

لقـد قـرأوا قولـك في الـرد على اليهـود الـذين اتهمـوك بالبخل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِـقُ كَيْـفَ يَشَـاءُ﴾[المائـدة: 64]، وبدل أن يفهموا من الآيـة الكريمـة الغـرض الـذي وردت من أجله، وهو نفي البخل عنك، راحوا يذكرون أنها تثبت لك صفة ذاتية يُطلق عليها اليد.. وأنها اليد الحقيقيـة.. وليس من فـرق بين أيدينا ويدك إلا أننا نعرف أيدينا وشكلها، ولا نعرف شـكل يديك.. تعاليت وتقدست عما يقولون علوا كبيرا..

ولو أنهم قرأوا معها قولك: ﴿لَا تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَى عُنُقِـكَ وَلَا تَبْسُـطْهَا كُـلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومًـا مَحْسُـورًا ﴾ [الإسراء: 29]، لعلمـوا أنـك لا تنهـاهم عن وضـع أيـديهم في أعنــاقهم، ولا بســطها، وإنمــا تنهــاهم عن البخــل والتبــذير.. ولذلك لم يقل أحد من الفقهاء بتحريم قبض اليد أو بسطها.

وهكــذا راحــوا يفهمــون قولك لإبليس: ﴿مَـا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْــجُدَ لِمَــا خَلَقْتُ بِيَــدَيَّ﴾ [ص: 75]، على أن لـــك يـــدان حقيقيتان، وأنك مددتهما إلى طينة آدم، لتسويها، كمـا نسـوي نحن الطين بأيدينها..

ويلهم أين عقولهم.. وهل يمكن لقداستك أن تحتـاج إلى هذا، وأنت الذي لا تحتاج لأي وسـيلة لتنفيـذ أي مطلب مهمـا عز وعلا.. لقد قلت في كلماتك المقدسة تـذكر ذلـك: { إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ} [يس: 82]، وقلت:{وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

ويلهم.. ألم يقرؤوا قولـك، وأنت تصـف أعمـال عبـادك: ﴿ذَلِكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ﴾ [آل عمـران: 182]، فهـذه الآيـة الكريمة واضحة في الدلالة على الأفعال مهما اختلف نوعهــا، وليس المراد منهـا حصـر الحسـاب والعقـاب على مـا عملت الأيدي فقط.. بل يدخل فيها ما عملت الألسن والأرجـل وكـل الجوارح.

وهكذا يا رب راحـوا يـذكرون أنـك تحتـاج لعيـنين لتبصـر بهمــا، مثلمــا يحتــاج البشــر إلى ذلــك.. وقــد جــرهم لــذلك انسياقهم وراء الكلمات والرموز، لا المعاني والحقـائق، فقـد قرأوا قولك: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمـر 14] وقولـك: ﴿وَاصْـنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود 37]، وقولك: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا [الطور 48]، وبدل أن يفهموا منها جميعا ما يدل على عنايتك بعبادك الصالحين، وتكفلك بحاجاتهم، وحفظك لهم.. راحوا يجسمونك، ويذكرون أن لك عينين، وليس من فرق بينهما، وبين عبادك إلا في الشكل والكيفية.

وهكذا راحوا يفهمون من قولك: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [الزمر: 67] الرموز دون الحقائق؛ فأثبتوا لك يدين تقبض بهما الأشياء.. مثلما يقبض الخلق الأشياء بأيديهم، مع أن دلالات كلماتك المقدسة واضحة في خطابهم بما يفهمون، وباللغة التي تطيقها عقولهم.. وليس المراد منها الحقيقة.

فأنت قد ضربت لهم مثلا بكون كل شيء في قبضتك، وتحت أمرك، وأنه لا يعجزك شيء، لكنهم تركوا الحقائق المرتبط بها، وراحوا يتشبثون بالألفاظ.. مع أنهم هم أنفسهم يستعملون أمثال هذه التعابير، ولا يريدون بها الحقائق.

فهم يقولون كل حين: الأمر أصبح بأيدينا، وفي قبضتنا.. مع أنهم لا يريدون من هذه الألفاظ ظواهرها، وإنما يريدون الحقائق المرتبطة بها..

وهكذا يقولون: فلان بين يدي، ونحن بين أيديكم.. وهم لا يريدون، لا الأيدي، ولا البينية، وإنما المعاني المتعلقة بها، والدالة عليها.

لكنهم إن رجعوا إلى كلماتك المقدسة، راحوا يتشبثون بالحروف، وينسون المعاني، ويغفلون عنها.. فيشوهونك ويشبهونك ويجسمونك.

ولو أنهم عادوا لكلماتك المقدسة نفسـها، وطبقـوا هـذه المقاييس التي طبقوها على تلك الآيات الكريمـة، لعلمـوا أن مرادك أعظم من أن يكون تلك الظواهر الـتي فهموهـا، فقـد قلت في كلماتك المقدسـة عنـد ذكـرك للمنـافقين: { نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: 67]، فهل يمكن أن يجرؤوا أحــد على وصفك بالنسـيان.. وهـل يسـتقيم النسـيان مـع العلم.. وهـل يستقيم النسيان مع العظمة؟

وهكــذا قلت عنهم:{إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَهُـوَ خَـادِعُهُمْ} [النسـاء: 142]، وهــل يســتقيم مــع عظمتــك المطلقة، ورحمتك الواسـعة، أن تكـون مخادعـا.. فالخـداع لا يكـون إلا للضـعفاء الـذين تعـوزهم القـدرة، فيلجـؤون إلى الحيلة.

وهكذا ذكر نبيك رحمتك بعبادك، وعنايتـك بهم، وشـبه ذلك باعتنـاء الوالـد بعيالـه، فقـال: (الخلـق كلهم عيـال اللـه، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[1]، فهل يمكن لأحـد من الناس أن يفهم من هذا الحديث ظـاهره، فينسـب لـك الولـد والعيال؟

فكل هذه الألفاظ لم تُـرد منهـا يـا رب ظواهرهـا، وإنمـا أردت منها المعاني التي تقف خلفها، وهي معان متناسبة مـع جلالك وجمالك وكمالك.. ومتناسبة مع اللغة التي خاطبت بها خلقك، والتي يستعملون فيها نفس تلك التعابير.

وليتهم اكتفوا بذلك يـا رب.. بـل راحت شـياطين الإنس والجن تزودهم بالكثير من الروايات التي لم تـزد عقـولهم إلا ارتكاسا وتشبيها وتجسيما ووهما.

1()المعجم الكبير للطبراني 10/86 ح(10033)

لقد قال أحدهم يصف عظمتك: (يطـوي اللـه عـز وجـل السموات السبع بمـا فيهن من الخلائـق والأرضـين بمـا فيهن من الخلائق يطوي كل ذلـك بيمينـه فلا ُيـرى من عنـد الإبهـام شيء ولا يرى من عند الخنصـر شـيء فيكـون ذلـك كلـه في كفه بمنزلة خردلة)(1)

وقال آخر متهكما من الذين ينزهونـك، ويقدسـونك: (إذا كـانت السـموات السـبع في يـده كالخردلـة في يـد أحـدنا، والأرضون السبع في يـده الأخـرى كـذلك فكيـف يقـدره حـق قدره من أنكـر أن يكـون لـه يـدان فضـلاً عن أن يقبض بهمـا شيئاً، فلا يد عند المعطلـة ولا قبض في الحقيقـة وإنمـا ذلـك مجاز لا حقيقة له، وللجهميـة والمعطلـة من هـذا الـذم أوفـر نصيب)(2)

وقال آخر يصفك بالملل: (جاء في الحديث عن النـبي قولـه: (فـإنَّ اللـه لا يَمَـلُّ حـتى تملـوا)(3)، فمن العلمـاء من قال: إنَّ هـذا دليـل على إثبـات الملـل للـه، لكن ؛ ملـل اللـه ليس كملل المخلوق ؛ إذ إنَّ ملل المخلـوق نقص ؛ لأنـه يـدل على سأمه وضجره من هـذا الشـيء، أمـا ملـل اللـه ؛ فهـو كمـال وليس فيـه نقص، ويجـري هـذا كسـائر الصـفات الـتي نثبتهـا للـه على وجـه الكمـال وإن كـانت في حـق المخلـوق ليست كمالاً)(4)

وراح يصفك بالهرولة، فقـال: (صـفة الهرولـة ثابتـة للـه

(1) العظمة 2/445(136)

(2) الصواعق المرسلة 4/1364

(3) رواه البخاري (43). ومسلم (785).

(4) مجموعة دروس وفتاوى الحرم (1/152).

تعالى كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخـاري ومسـلم، فذكر الحديث وفيه: (وإن أتاني يمشـي أتيتـه هرولـة)، وهـذه الهرولة صفة من صفات أفعاله التي يجب علينـا الإيمـان بهـا من غير تكييف ولا تمثيل، لأنه أخبر بهـا عن نفسـه وهـو أعلم بنفسه فوجب علينا قبولها بدون تكييف)(1)

يـا رب.. فأسـألك أن تعيـذني من الجهـل الـذي يبعـدني عنـك، وأن تطهـر عقلي من كثافـة التشـبيه والتجسـيم، وأن تجعلني ألجأ إليك كل حين، فأنت العاصم الذي يعصم العقول من أن تقع في هذه الانتكسات.

وأعوذ بك يا رب أن أترك المحكم الواضح الظاهر الـذي اتفقت فيه العقول مع كلماتك المقدسة، وأتشـبث بالمتشـابه الذي صار فتنة للمحجوبين بالرموز عن الحقائق.

لقد ذكرت ذلك يا رب، ونبهتنا إليه، وحذرتنا منه، فقلت: {هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَـا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]

فاجعلني يا رب من الراسخين في العلم الـذين يمـيزون بين الحقائق والألفـاظ، ويعرفـون أن الألفـاظ أضـعف من أن تعبر عنك، وأنك أعظم من أن توضع في تلـك القـوالب الـتي لم يضعها البشر إلا للتعبير عن أنفسهم وحاجاتهم.

(1) فتاوى ابن عثيمين -العقيدة-1/380.

المبدئ المعيد

إلهي.. أيها المبدئ المعيد.. الفعل لما يريد.

أسألك كما بـدأتني بفضـلك، وغمرتـني في بـدايتي بكـل ألوان لطفك وهدايتك وجودك.. أن تعيدني إليك، وأنا بفطرتي النقية التي خلقتها، وسويتها، ورضيتها، مـزودا بكـل مـا أتحت لي من دروس الهداية التي غذيت بها روحي ونفســي وعقلي وقلبي وكل لطائفي.

وأعـوذ بـك يـا رب أن يصـير حـالي كحـال أولئـك الـذين انطمســت بصـائرهم الـتي زودتهم بهـا، بعـد أن رغبـوا عنـك، وتحولوا إلى أعـدائك.. وكـان أول مـا حصـل لهم ذلـك العمى الذي وصفته بقولك: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَــنْكًا وَنَحْشُــرُهُ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ أَعْمَى (124) قَــالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَـا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 124ـ 126]

فأعوذ بك يا رب أن أنسى آياتك، أو أعرض عن رســلك، أو أتمرد عن تعاليمك، أو أهجر كتابـك، أو أعـادي أوليـاءك، أو أوالي أعــداءك، أو أشـيح بـوجهي عن مواعـظ الملـك الــذي قرنته بي، وجعلته سبيلا من سبلي إليك.

يا رب، فاحفظ لي بصيرتي حتى استردها عنــد الإعــادة، وفي ذلـك العـالم، وفي تلـك النشـأة الجديـدة، وهي ممتلئـة جمـالا ونـورا وصـفاء وطهـرا.. حـتى أسـتمد من أنوارهـا مـا يحفظني في تلك الظلمات، ويجعلني أمر على الســراط كمـا تمر الأنوار، لا يصـيبها الخـوف، ولا ينتابهـا الحـزن، ولا تشـعر

بدقته، ولا بحدته، ولا يهولها ما يقف أسفله وعلى جوانبــه من الأهوال.

يا رب.. وأسألك أن تجعلني من الذي عصمتهم من ذلـك الفزع الذي يعتري الخلائق عندما تأمر بنهايــة النشــأة الأولى، وبداية النشأة الثانية.. عندما يُنفخ في الصور، ويفــزع من في الســموات ومن في الأرض إلا من شــئت.. فــاجعلني ممن شئت.. فأنت أكرم الأكرمين.

يــا رب.. وإن وزنتــني ووزنت أعمــالي في ذلـك العـالم، وتلـك النشـأة، فاجعـل مـيزاني مـيزان من أحببتهم ورضـيت عنهم، وملأت قلـوبهم وحقـائقهم بكـل قيم النبـل والطهـارة، حتى إذا خرجت نتيجة ذلـك المـيزان صـحت كمـا صـاح ذلـك المؤمن الذي وصفته في كتابك، ووصفت فرحــه واستبشــاره وقولــه: { هَــاؤُمُ اقْــرَءُوا كِتَابِيَــهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ} [الحاقة: 19، 20]

أو كما وصفت ذلك الآخر الذي أدخلته جنتك، وفيها تذكر صديقه الذي كان يسـتعمله الشـيطان لغوايتـه، لكنـه اجتنبـه، واتبع رسلك وأولياءك، وضحى بكل شـيء في سـبيلك، وبعـد أن اطلع على حاله صاح فرحا وسرورا بنعمتك عليـه: { أَفَمَـا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْـلِ هَـذَا فَلْيَعْمَـلِ الْعَـامِلُونَ} [الصافات: 58 - 61]

يا رب.. وإن أدخلتني دار القـرار، فـاجعلني مـع أوليائـك الــذين أحببتهم وواليتهم وضــحيت بكــل شــيء في ســبيل نصرتهم.. فقـد قلت في كلماتـك المقدسـة: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُـــــولَ فَأُولَئِكَ مَــــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصِّـدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُـنَ أُولَئِكَ رَفِيقًـا} [النساء: 69]، وقال لنا نبيك مبشرا: (المرء مع من أحب)[1]

يا رب.. وأعوذ بك أن تعيـدني في زمـرة أعـدائك، فأنـا، وإن قصـرت في حقـك، لكن قلـبي لم يكن معهم، ولا مواليـا لهم، بـل كـان مـع أوليائـك، سـلم لمن سـالموا، وحـرب لمن حاربوا.

يـا رب.. كلمـا تـذكرت اسـمك [المبـدئ المعيـد] أشـعر بسرور عظيم يهزني إليك.. ويرفع عني كل عن تلـك الهمـوم الـتي أراهـا، وأعيشـها، لأني أعلم أن هـذه مجـرد بدايـة، وأن النهاية أجمل بكثير.

فكل أولئـك المظلـومين المحـرومين المحتقـرين الـذين أراهم، وأتألم لهم، ليست تلك نهايتهم، ولا نهاية قصتهم.

بل ما أراه منهـا ليس سـوى البدايـة فقـط، أمـا النهايـة فهي أجمل بكثير؛ فأولئـك المضـطهدين سيجلسـون في يـوم من الأيـام على أرائـك السـعداء، ومنـابر النـور، مسـرورين يشـاهدون أولئـك الـذين ظلمـوهم واحتقـروهم، وهم يلقـون جرائر أعمـالهم الـتي لم يحـاكموا عليهـا في بـدايتهم، والـتي ظنوا أنهم لن يحاكموا عليها أبدا، غافلين عن عدلك المطلــق الذي أقمت عليه كل شيء.

لقد قلت في كلماتك المقدسة تصف ذلك الموقف لتملأ قلوب المستضعفين راحة وسعادة وطمأنينـة: {فَـالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُـرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَـا كَـانُوا يَفْعَلُـونَ (36)} [المطففين: 34 -

---

1()رواه أحمد 3/ 159 (12652) وأبو داود 5127 .. وغيرهما..

[36

وقلت تــذكر أولئــك الظلمــة الــذين حفــروا الأخاديــد للمؤمــنين، وملأوهــا حطبــا ونــارا، ثم ألقــوهم فيهــا، وهم يتوهمون أنهم يلقونهم في النار، بينمـا لم يكونـوا في حقيقـة الأمر يلقونهم إلا في جنتك وفضلك: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْـدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُـودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَـا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُـهُودٌ (7) وَمَـا نَقَمُـوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ (8) الَّذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ شَـهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُـوا الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُــوا فَلَهُمْ عَــذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَــذَابُ الْحَرِيـقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [البروج: 4 - 11]

ثم ذكرت البطش الشديد الذي ينتظر أولئـك المجـرمين في دار الإعادة، فقلت: { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيـدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [البروج: 12 - 16]

يــا رب.. فأســألك أن أنجح في كــل الاختبــارات الــتي تختبرني بها في دار بـدايتي، حـتى إذا مـا أعـدتني إليـك كنت محتفظا بإنسانيتي، لأصعد بها في معارج الكمال الـتي هيأتهـا لي، ولأرى من أنـوار ملكوتـك مـا تمتلئ بــه بصـيرتي إيمـان وتحقيقا ورقيا.

الحكم العدل

إلهي.. أيها الحكم العـدل.. صـاحب الملـك والملكـوت.. والقوة والجبروت.. والموازين الدقيقة.. والقدرة النافذة.

عنـدما أنظـر إلى عـالم الآفـاق، فـأرى الكـواكب، وهي تسير في مساراتها الدقيقة بانتظام عجيب، ولملايير السنين، من غــير أن يصــطدم بعضــها ببعض، أو يطغى بعضــها على بعض.

وعندما أستمع إلى ما يقوله الخـبراء حـول عـالم الـذرة الدقيق، والأكوان المصـغرة الـتي صـنعتها بلطفـك وحكمتـك، والــتي لا تقــل في إبــداعها عن عــالم الكــواكب والنجــوم والمجرات.

وعنـدما أنظـر إلى عـالم الحيـاة وأرى النمـل والنحـل والحشرات، وهي منتظمة في قراها ومدنها، يـؤدي كـل منهـا وظائفه بدقة وإحكام في مجتمعات ممتلئة بالرقي والتحضر.

وعنـدما أنظـر إلى عـالم النفس، ذلـك العـالم المملـوء بعجــائب الــروح والمــادة، والغيب والشــهادة، والأحاســيس والمشاعر..

عندما أنظر إلى كل ذلك وغـيره، أمتلئ إعجابـا بقـدرتك البـاهرة، وموازينـك الدقيقـة، وعلومـك الـتي لا حـدود لهـا، ولطفك الذي لا نهاية لجماله.

بعـد تلـك الرحلـة الـتي أرى فيهـا كـل شـيء مسـتقرا منتظمـا ممتلئـا بالجمـال والكمـال والعـدل، أنـزل إلى تلـك

العوالم التي أذنت لنا فيها ببعض الحركة، حتى نؤدي وظـائف الاستخلاف التي امتحنتنا بها، لترفعنا، وتمنحنا من الكمـال مـا هو متاح لنا.

عندما أنزل إلى هذه العوالم أصاب بالصدمة.. فــالحرب والصـراع والتنـافس على حجـارة الأرض ومعادنهـا وسـوائلها وهوائها يقضي على كل شيء جميل، ويجعل الحياة البشــرية كابوسا ثقيلا.

وعندما أنظـر إلى أولئـك الـذين يجلسـون على عـروش السـلطة، وأرى فيهم فرعــون والنمــرود ونــيرون وهتلــر وتـرامب.. وكـل أولئـك المجـرمين الـذين ملأوا الأرض خرابـا ودمارا، أمتلئ بالألم، لأن البشر تركوك، وراحوا إلى أهــوائهم يحكمونها من دونك.

ولو أنهم علموا أنك أنت الحكم العدل، كما أنـك الخـالق الـرازق.. لجـاءوا إليـك يطلبـون منـك أن تكـون الحكم بينهم مثلما كنت الحكم في عوالم الآفاق والحياة والأنفس.

ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا كرمك الذي تجلى في عــالم الخلق، يتجلى في عالم الأمر.. والذي تجلى في عالم الكــون يتجلى في عـالم التشـريع؛ فيسـتحيل على الـذي خلـق كـل شيء ألا يكون قادرا على تسـييره.. ويسـتحيل على من دبـر أمور الحشرات والحيوانات والذرات أن يعجز عن تدبير أمـور البشر.

ولـو أنهم تخلـوا عن كبريـائهم، وراحـوا يدرسـون سـيرة الأنبيــاء والمرســلين.. لعلمــوا أنهم لم يتحملــوا كــل تلــك التضحيات لمجرد التعريف بك، وبكيفية عبادتك، وإنمـا جـاءوا

مع ذلك ليعرفوهم بتلك القوانين التي تحكمهم، والقيم التي تصلح لهم، والتي تحميهم من نفوسهم، ومن تغيير الشياطين لفطرتهم.

ولو أنهم تواضعوا، وراحوا يقرؤون كلماتك المقدسة الممتلئة بالإعجاز، لوجدوا فيها كل ما يبحثون عنه.. فكل شرائع العدالة والرحمة واللطف مبثوثة فيها، بمنطوقها ومفهومها.

لكنهم حجبوا بأولئك الجبابرة الذين حكموا باسمك، وتسلطوا على عبادك بالشريعة التي كذبوا على الخلق حينما أوهموهم أنها شريعتك.

ولو أنهم تواضعوا، وراحوا إلى البيان النبوي الذي أرفقته مع تنزيلك، لعلموا أن رسول الله أخبر أن السلطان والقرآن سيفترقان.. وأن كل الحكام الذين سيمر عليهم التاريخ لن يحكموا بشريعتك، وإنما سيحكمون بأهوائهم وأسمائهم وعشائرهم.. وإلا فإن أسماءهم وحدها تدل عليها.. فهي أحكام أموية أو عباسية أو عثمانية أو سعودية.. وليست أحكاما إلهية ربانية نبوية.

إلهي.. هم يتوهمون أن أحكامك بينهم قاصرة على تلك الحدود التي شرعتها، أو العقوبات التي سلطتها على المجرمين والخونة والظالمين.. ولم يعلموا أن شريعتك وأحكامك أعمق وأعظم، لأنها تبدأ بتربية النفس وتهذيبها، وتنتهي بذلك المجتمع الفاضل الممتلئ بكل قيم الرحمة واللطف والعدالة.

لقـد جربـوا أن يقيمـوا لأنفسـهم دولا ودويلات وأنظمـة بعيدة عنك، فتحققت لهم بعض مظاهر العدالة، فتوهمـوا أنـه يمكنهم أن يقيموا حيـاتهم بمعـزل عنـك، وقـد وهمـوا، فتلـك العدالة التي يرونها ليست سوى شباك للشـيطان يصـطادهم بها.

فبتلــك العدالــة انتكســت أخلاقهم، وظهــرت بينهم كــل أصناف الشذوذ والإباحية والرذيلة، وتحولـوا معهـا إلى عـوالم غريبة، لا هي من عالم الإنسان، ولا هي من عـالم الحيـوان.. ونجح الشيطان في تغيير خلقتهم وجبلتهم وفطرتهم.

إلهي.. مــا حصــل لهم ذلــك كلــه إلا بتمــردهم عليــك، وفــرحهم بعلــومهم، وتــوهمهم أنهم يمكن أن يســتغنوا عنــك بــذلك البصــيص من نــور العقــل الــذي وهبتهم.. ولــو أنهم استعملوه حق استعماله، لاهتدوا به إليك، ولنـالوا من أشـعة فضــلك مــا يحميهم من تلــك الظلمــات الــتي أوقعتهم فيهــا نفوسهم الأمارة، وشياطينهم المتمردة.

إلهي.. فهب لي جميل التسـليم لـك حـتى أكـون كنبيـك إبراهيم.. ذلك الذي طلبت منـه في عـالم الرؤيـا لا في عـالم اليقظــة أن يــذبح ابنــه، فأســرع إلى ذلــك، لا يجادلــك، ولا يماريك، ولا يعقب عليـك.. لأنـه يعلم أن رحمتـك الـتي وهبتـه إياه هي نفسها التي طلبت منه ذلك.

وهب لي ــ إلهي ــ مـا وهبتـه لإسـماعيل.. ذلـك الفـتى الحليم الذي تقبل أمرك، وسلم له، وطلب من أبيه أن ينفــذه بكل دقة.. ولم يتهرب، ولم يجادل، ولم يدخل ذلـك البصـيص الضئيل من العقل الذي يعقل عن الحقيقة.

إلهي.. أعوذ بك أن أتمرد على أوامرك، أو أدخل أهوائي في شـرائعك.. فـأنت أعلم بمن خلقت، وأنت الحكم العـدل، وأنت اللطيف الخبير.

إلهي، وأعـوذ بـك أن يكـون تسـليمي لحكمـك تسـليم المقهورين المجبـورين المكـرهين، فـأنت أكـرم من أن تقبـل مثل هذا التسليم..

وأســألك بدلــه أن يكــون تســليمي لــك ولشــريعتك وحاكميتك تسليم المحبين الصادقين المخلصين.

وكيف لا يكـون تسـليمي لـك مثـل هـذا التسـليم.. وكـل كياني ساجد لك، خاضع لأمرك..

وهــل يمكن أن أكــون أدنى همــة من ذلــك الــذي قــال لمحبوبته:

لو أرسلتْ، يوماً، بُثينة ُ تبتغي يميني، ولو عزّت عليّ يميني

لأعطيتها ما جاءَ يبغي رسولها، وقلتُ لها بعد اليمين: سليني

إلهي.. وأعوذ بك أن أدخل هواي في شـريعتك، أو أقـدم عقلي على ذلك العقل المقدس الذي وهبته لنبيك، وأنزلته لنا في كتابــك.. فــأنت الأعلم والأحكم، وأنت الأدرى أين تضــع شريعتك..

فأسألك يا رب أن أكون كذلك الذي قال:

أترك ما أهوى لما قد هويته... فأرضى بما ترضى وإن

فأسألك يا رب، وأنت الذي تملك نفسي، وتملك رضـــاها وسخطها، أن تجعلني ـ كما أعبدك بالذكر والسـجود والصـلاة والقـراءة ــ أعبـدك في السياسـة والاقتصـاد والفن والثقافـة وكل شؤون الحياة.. فلا خير في شأن تكون أنت بعيدا عنه.

فاجعل يا رب سياسـتي واقتصـادي وفـني وكـل شـؤون حياتي تابعة لمرضاتك، حتى أتحقق بما أمرتنا أن نقوله: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْـلِمِينَ } [الأنعـام: 162، 163]

الواحد الأحد

إلهي.. أيها الواحد الأحد.. الفرد الصمد.. الـذي ليس لـه نظير ولا ند.. ولم يكن له كفوا أحد.

مهمـا عظمت صـفاتك وكملت وضـاقت العبـارات عن التعبـير عنهـا إلا أن أعظمهـا وأكملهـا وأجملهـا وحـدانيتك وأحديتك.. فأنت الواحد الأحد الذي لا يعتريـه التعـدد من كـل الوجوه، وبكل المعاني، وفي كل الأحوال.

وكـل من ادعى معرفتـك، وادعى معهـا تعـددك، أو تركيبك، أو وجود من يشبهك، أو وجود مـا ينـاظرك، أو يكـون معك ندا، أو يكون معك مـدبرا، أو يكـون معـك حاكمـا.. فقـد جهلـك.. فأسـاس معرفتـك وحـدانيتك، وأسـاس كـل ضـلالة الإشراك بك.

فلولا وحـدانيتك ــ رب ــ مـا كملت صـفاتك، ولا تـنزهت ذاتك، وكيـف تكمـل صـفاتك، وهنـاك من ينازعـك إرادتـك إذا أردت؛ فيختـار عكس اختيـارك.. وبـذلك يجعلـك مكرهـا.. أو يختار مثـل اختيـارك، فيكـون لـك ــ أو تكـون لـه ــ تابعـا.. أو ينازعـك قـدرتك، فيجعلـك عـاجزا.. أو يخـالف مـا دلـك عليـه علمك، فيجعلك جاهلا.. أو يخالف رحمتك فيجعلك قاسـيا.. أو يخالف عدلك، فيجعلك جائرا.

وهكـذا يـا رب لن تبقى صـفة من صـفات كمالـك، إلا وأفسدها التعدد.. فـالتفرد والوحدانيـة أسـاس الكمـال، ومن كان متعددا كان عرضة للفساد والانحلال.

ولهذا كانت وحدانيتك ـ رب ـ أساسا للسلام والطمأنينـة

والسعادة التي يشعر بها المؤمنون الموحدون.. وكيف لا يشعرون بها، وهم يرون صراع الأقطاب والنظراء، وغلبة بعضهم على بعض، وتسلط بعضهم على بعض، وقهر بعضهم لبعض.. وتحول الحياة بسبب ذلك كله إلى مفازة للقتل والدمار.

فلولا وحدانيتك ــ رب ــ ما رأينا الأقمار والكواكب والنجوم والمجرات والذرات، وهي تسير بدقة في مساراتها المحددة لها، لتجعل من الكون جميعا لوحة فنية بديعة الجمال.. وهل يمكن لسفينة يتنازعها ربانان أن تصل إلى المرسى؟.. وهل يمكن لكون يتنازعه ربان أن يسير بانتظام ودقة؟

ولولا وحدانيتك رب ما رأينا ذلك التكامل في الموجودات.. ولا ذلك التناسق بينها.. ولا تلك الخدمات التي يقدمها بعضها لبعض، فهي تسير في دورة منتظمة، وبمقاييس دقيقة لا يصيبها الشذوذ، ولا ينحرف بها الصراع.

فويل لأولئك الذين دنسوا عقولهم وقلوبهم بالإشراك بك.. فملأوها بالأسماء التي لا مسميات لها، والتي قلت فيها في كلماتك المقدسة توبخهم بسببها: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} [النجم: 23]

يا رب.. وكما هديتني إلى جنان توحيدك، وملأت قلبي بتعظيمك، وحفظت عقلي من أن تتسرب إليه أوهام الشرك بك.. فاجعلني أوحد قلبي لك، حتى لا يكون فيه غيرك، وحتى تكون أنت وحدك ملاذي وملجئي وطلبتي وغايتي.. وحتى لا

يتربع على عرش قلبي حب غير حبك، أو تسليم غير التسـليم لك، أو ذلة لغير جمالك، أو سكون غير السكون لك.

يا رب.. أنت تعلم أني مـا أحببت إلا من أمرتـني بحبهم، ولم أعظم سوى من أمرتني بتعظيمهم، ولم أسكن لغـير من أمرتني بالسكون إليهم..

ولذلك فإن حبي وتعظيمي وسـكوني لهم لم يكن سـوى حبا وتعظيمـا وسـكونا لـك.. لأنـك أنت الآمـر، وأنت الخـالق، وأنت المبدع.. وليسوا سوى مظاهر لجمالـك وكمالـك، وهـل يمكن للعاشق أن يعشق الظـاهر، ولا يعشـق المظـاهر الـتي يُظهرهـا أو يظهـر بهـا؟.. وهـل يمكن لمن يحب الشـاعر أن يكـره قصـائده؟.. وهـل يمكن لمن يحب الرسـام أن يكـره لوحاته؟

لذلك يا رب.. فإن قلبي محفوظ لك، ومتوجه إليك، ومـا دخلـه ليس أغيـارا تـزاحم محبتـك، وإنمـا هي آثـار لمحبتـك.. وإنما هو فيضان لبحر محبتك.. وهل يمكن لعاشق أن يخـالف محبوبه في الحب والبغض؟

إلهي.. فكما ملأت عقلي بكـل بـراهين وحـدانيتك، حـتى اسـتحال عليـه أن يعتقـد التعـدد، أو يقـع في مسـتنقعات الشـرك.. فاحفـظ قلـبي المتقلب من أن يقـع في تلـك المستنقعات الآسنة، فينشغل بالمظاهر عن الظاهر، وبالأنوار عن النور، وبالأشياء عن مشيئها، وبالأكوان عن مكونها.

اللطيف الخبير

إلهي.. أيها اللطيف الخبير.. الذي يعلم كل شيء.. ظاهره وباطنه.. ومكشوفه وغامضه.. وسره وعلانيته.. ويعلم ما يصلحه.. وما يفسده.. وما ينفعه.. وما يضره.

عندما أراقب أنفاسي، وهي تمتص رحيق النسيم، فيمر في جنبات جسمي لطيفا هادئا لا يشعرني بأي نوع من الانزعاج ولا القلق، مع أنه يقوم بأعقد عمليات الاحتراق، ليوفر لي ما أحتاجه من الراحة، ويحول من ذلك الطعام مادة تزود خلاياي بالحياة.

وعندما أتذوق الطعام، وأجد لذته، وأرى مروره الهادئ بين أجهزة جسمي وأعضائي ودمي وخلاياي.. مع أنه يقوم بأعقد العمليات التي لا تضاهيها جميع مصانع الدنيا.. من غير أي ضجيج ولا ضوضاء ولا قلق.

وعندما أرى جسمي على الكرة الأرضية، وهي تتحرك حركتها السريعة، وتسبح مع الكواكب والنجوم في أفلاكها الدقيقة من غير أن يصيبني الدوار، ولا الغثاء.. بل أشعر، وكأني ذلك الرضيع الذي يتقلب في مهده بكل سعادة وراحة.

وعندما أرى مصابيح النهار تنطفئ بالليل لتتيح لي نوما مريحا..

وعندما أراها تشتغل بكل هدوء ولطف مع تنفس الصبح، لتتيح لي أن أتقلب في هذه الحياة ومطالبها..

وعندما أرى كل شيء معدا إعدادا دقيقا، وكأنه لم يخلق إلا لأجلي، فأشعة الشمس حانية.. وألوان الفضاء زاهية.. والماء العذب يترقرق بانسيابية وهدوء وجمال.

عندما أرى كل ذلك يا رب.. أرى لطفك وحنانك وخبرتك بما يحتاجه خلقه.. فلذلك تتكرم عليهم بكل ما يصلحهم، ويصلح لهم، وتبعد عنهم كل ما يزعجهم ويؤذيهم.

يا رب.. عندما أرى كل هذا أتيقن أن كل شيء يحصل في هذه الحياة هو ثمرة للطفك وخبرتك التي لا ندركها.. فخالق الحياة هو خالق الكون.. وهو أنت..

وما دام لطفك يتحكم في عالم الأكوان، فهو يتحكم في عالم الحياة.. وما دام هو المتحكم في عالم الآفاق، فهو المتحكم في عالم الأنفس.

لقد أدرك نبي الله يوسف صلواتك عليه وسلامه هذا المعنى عندما قال في خاتمة مسيرة حياته: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف: 100]

لقد أدرك أن الأذى الذي أصابه به إخوته.. والبئر التي رمي فيها.. والعبودية التي امتحن بها.. والإغراء الذي تعرض له.. والسجن الذي لبث فيه بضع سنين.. لم يكن كل ذلك سوى مقدمة لتتويجه بذلك التاج الشريف الذي أتاح له أن ينقذ البشر من المجاعة.

لقد كان كل ذلك ضروريا حتى يصل إلى ذلك المحل، بعد أن يمر بكل أصناف الفتن ما ضر منها، وما سرّ.. ليسير بعد ذلك وفق التجارب التي عاشها، والتربية التي ربيته بها.

وهكذا يمكن لكل الخلق إن فهموا سر لطفك أن يتوجوا بمثل ذلك التاج.

وذلك التاج ليس ضـروريا أن يكـون في الـدنيا.. فالـدنيا دنيا.. وقصيرة.. ولا معنى لها.. ولو كـانت تعـدل عنـدك جنـاح بعوضة ما سقيت منها كافرا شربة ماء.

لذلك يمكن لكل الناس.. لكل الفقـراء.. والمحـرومين.. والمرضـى.. والمبتلين.. أن يعتـبروا أنفسـهم قـد وقعـوا في الجب الذي وقع فيه يوسـف، ورُمـوا في السـجن الـذي رمي فيه.. فإن أحسـنوا كمـا أحسـن يوسـف، وصـبروا كمـا صـبر، ورضوا كما رضـي.. فسـيتوجون بـذلك التـاج الـذي تـوج بـه.. ويصبحون أعـزة بعـد أن كـانوا أذلـة.. وأصـحاء بعـد أن كـانوا مرضى.. ومنعمين بعد أن كانوا مبتلين..

لـو فقهـوا اللطـف الإلهي لعلمـوا أن اللطيـف الخبـير لا يـؤذيهم ولا يعـذبهم ولا يتفنن في الإسـاءة لهم كمـا تـزعم الشياطين.. بل هو يصعد بهم في لطف وحنان وتـؤدة إلى أن يصلوا إلى الكمال الذي أتيح لهم، والتيجان التي يستحقونها.

إلهي.. وأسألك بلطفك الذي غمـرت بـه كـل شـيء، أن تلطـف بي في مجـاري أقـدارك حـتى لا يقـع لي منهـا إلا مـا يسـعدني ويرفعـني ويؤهلـني لتلـك المناصـب الرفيعـة الـتي أهلت لها أوليـاءك بعـد أن امتلأت قلـوبهم محبـة لـك وشـوقا إليك.

يا رب.. الطف بقلبي كما تلطف بجسدي حتى لا تحرقـه الأغيار، فينصرف عنك، فيختنق بذلك الانصراف.. فأنت هواؤه وحياته.. ولا حياة له من دونك.

يــا رب.. وأســألك بلطفــك أن تلطــف بهــؤلاء البشــر المســاكين الــذين تركــوا ســبيل أنبيائــك وأوليائــك وراحــوا يســلكون ســبل الشــياطين، ويتمــردون على الصــالحين والقديســين الــذين علمتهم تأويــل الحــديث، وأرســلتهم إلى البشر لينقذوهم من جوع الروح، كما أنقذهم يوسف من جوع الجسد.

لقد كان جوع المصـريين لسـبع سـنين.. وأنقـذهم نبيـك يوسف منها.. ونحن يا رب قـد امتـد جوعنـا لمئـات السـنين.. ونسـألك أن تنقــذنا من تلــك البقــرات العجــاف والســنابل اليابسات التي تلتهم حياتنا وديننا وأخلاقنا وكـل شـيء صـالح فينا.

يــا رب نحن في انتظــار ذلــك الــذي وعــدتنا بــه، فقلت: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنًـا يَعْبُـدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ} [النور: 55]

وننتظر بشغف ذلك الوعد الذي كتبتـه في جميـع كتبـك، وقلت عنه: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُـورِ مِنْ بَعْـدِ الـذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء: 105]

وننتظـر من لطفـك أن يتحقـق ذلـك الوعـد الـذي ينقـذ البشــرية، ويقتــل شــياطينها، والــذي قلت فيــه: { هُــوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة: 33]

يا رب لا مبدل لكلماتك، ولا خلف لوعدك.. ونحن ننتظـر لطفك بنا، وبهذه الأمة، وبالبشر جميعـا.. حـتى يعـودوا إليـك، وتعود إليهم مع العودة إليك تلك الابتسامة التي سرقتها منهم الشياطين، وعوضتهم بدلها ما نراه من صراع وسفك دماء.

الدال والدليل

إلهي يا من دل كل شيء عليك.. وكنت الدليل على كـل شيء.. فلا يحجب عنك إلا من طُبـع على قلبـه، وغُشـي على بصره وبصيرته.

لقد سألت كل شيء عنك، وعن دليلـه عليـك، فـأخبرني أنك أنت الدليل على الأشـياء.. لأنهـا لـولاك لم تكن.. ولـذلك كـان وجــودك مقدمــة لوجودهــا.. وحضــورك الــدائم بــذرة لحضــورها.. ولطفــك العظيم ورحمانيتــك الســابقة عنوانــا لظهورها.

عميت عين لا تـــراك، وأنت حاضـــر في كـــل شـــيء.. وخسرت صفقة عبد يشـك في وجـودك، وقـد دل عليـك كـل شيء، بل أنت الدليل على كل شيء.

ولــو أن هــؤلاء نظــروا إلى الضــعف والقصــور والعجــز المرسوم في صـفحات الأشـياء، لعرفـوا أن ذلـك أكـبر دليـل عليـك.. فلا يخـرج الضـعيف عن ضـعفه إلا القـوي، ولا يخــرج المــريض عن مرضــه إلا الطــبيب.. ولــذلك كــان مجــرد بــدو الضعيف قويا دليلا على وجود القوي.. ومجرد تحول المــريض سليما دليلا على وجود الطبيب.

يــا رب.. لــو أنهم طبقــوا هــذه المعــايير الموجــودة في عقــولهم، والــتي يزعمــون من خلالهــا أنهم عقلاء وفلاســفة ومفكــرون وعلمــاء.. ثم يتبــاهون بــذلك، ويتفــاخرون بــه.. لــو طبقوها على الأشياء لـدلتهم كلهـا عليـك، ولعرفـوا أنـك أنت

الحقيقة العظمى التي سبقت وجود كل شـيء.. ولولاهـا لمـا وجد شيء.

وهل يمكن أن يتشكل القصر العظيم من غير أن يكــون هناك مهندسون يخططـون لبنائـه، وعمـال يقومـون بالبنـاء.. ويكون معهم الكثير من الرمل والإسمنت وكل أدوات البناء.. فهــل يعقــل أن نــؤمن بوجــود القصــر، ثم لا نــؤمن بوجــود المهندس الذي صممه، والبناؤون الذين قاموا ببنائه؟

إنهم ـ يا رب ـ إذا رأوا قصور الدنيا، حتى لو كانت خربــة قد أكـل عليهـا الـدهر وشـرب، يقـرون بوجـود أصـحاب لهـا، ويعجبون بالمهندسين الذين صمموها، ويحفظونهـا في الآثـار، ويكتبــون عنهــا الكتب.. لكنهم يمــرون على تلــك القصــور العجيبة الموجودة في خلايا أجسامهم، وفي كل شـيء يحيـط بهم، ثم لا يعيرونها أي اهتمام، وكأنهـا تملـك من العقـول مـا يجعلها مستغنية عن المهندسين والمصممين والبنائين.

يا رب.. لو أنك لم تخلق في كونـك جميعـا سـوى زهـرة واحدة لكانت دليلا للعاقل يدله عليك، ويوصـله إليـك.. وكيـف وأنت خلقت ما لا يعـد ولا يحصـى من المخلوقـات، ومن كـل الأنواع، وبكل الهيئات..

لكن عقل الجاحد يعرض عنك، ويظل يمـيز بين إبـداعك وإبداع من يتوهم أنه إبداعهم من خلقـك.. حيث ينسـب إليهم كل ما يصـلون إليـه من اكتشـافات لبعض بـدائع صـنعك، في نفس الوقت الذي يعمي عينيه عنك.

وهـو يجـادل في ذلـك.. ولا يعلم أن جدالـه نفسـه دليـل عليــك.. فمن أين لتلــك المــواد الكيميائيــة الــتي يتصــور أن

حركتهـا هي السـبب في تحـرك فكـره القـدرة على التفكـير والجدل، وهي مجرد مـواد ميتـة لاعقـل لهـا، ولا مشـاعر، ولا أحاسيس.. وهل يمكن للموتى إذا اجتمعـوا أن يشـكلوا حيـاة ممتلئة بالإدراك والوعي والأحاسيس؟

وهكــذا يمكنــه أن يتســاءل عن تلــك الزهــرة الممتلئــة بالجمال، مع أنها صماء بكماء لا عقل لها.. فهـل تملـك أدوات الألوان، أو عبقرية الفنان، أو تلـك المـواد الكيميائيـة لتشـكل نفسها بتلك الصورة الجميلة التي تجتمع فيها الألوان الباهرة، والــروائح الذكيــة، والتناســق العجيب، ثم تظهــر في أوقــات محددة، وتختفي في أوقات أخرى بعد أن تؤدي بدقة ما وكـل لها من وظائف هي نفسها لا تعلمها.

هل يعقل أن تكون تلك الزهرة هي التي صنعت نفســها، وهي التي صممت ألوانها، ومزجت من المواد المنتشرة بينها مــا شــكل رائحتهــا؟.. وهــل هي على علم بعلــوم الفيزيــاء والكيمياء والطبيعـة؟.. وهـل هي على علم بـالمواد المحيطـة بها وتفاصيلها؟

إن الحمــق يبلــغ مبلغــه من أولئــك الــذين يرونهــا، ثم لا ينسبونها إليك، أو يعتبرونها رسالة منـك إليهم لتـدلهم عليـك، في نفس الوقت الذي ينبهـرون فيـه للبـاحث البسـيط الـذي استطاع أن يكتشف الصيغة الكيميائية المشكلة لروائحهــا، أو سـر ألوانهـا وبهائهـا، أو ذلـك الفنـان الـذي يقلـد جمالهـا في لوحاته.

إنهم إذا رأوا تلك اللوحات انبهروا بهـا، وسـجدوا للفنـان الذي رسمها.. وأحـالوا أن يكـون ذلـك الرسـم مجـرد صـدفة

لألوان اجتمعت.. بل يعتبرونها إبداعا عظيما، ومن عقل جبار، وذوق رفيع..

لكنهم ـ يا رب ـ يتركون تلك المكاييل التي حكموا بها للعالم والفنان، ليطبقوا على الزهرة قوانين الصدفة العمياء، والطبيعة البكماء الصماء المجنونة.

إلهي.. ولذلك كان وجودك دليلا على وجود الأشياء، وكمالك دليل على ما أودع فيها من قوى وطاقات لا يمكن أن يوفرها إلا صاحب علم عظيم، وإرادة نافذة، وقدرة باهرة.

يا رب.. عندما أتأمل في سر ذلك الغباء والحمق والغفلة التي يقع فيها أولئك الذين يزهون بأنفسهم، ويترفعون عليك أعلم أن ذلك أيضا دليل عليك، فهم لم يحتجبوا عنك، وإنما أنت الذي حجبتهم، لأنك لا تريد أن تري جمالك تلك النفوس المملوءة بقذارة الكبر، وعفن الغرور، والزهو الكاذب.

ولو أنهم بدل أن يسلموا أمر معرفتك لعقولهم المعقولة بأهوائهم، راحوا يطهرون أنفسهم من تلك القاذورات التي تحولت إلى قيود وأغلال تحجبهم عنك، لعرفوك من غير حاجة لأي دليل يدل عليك، لأن كل شيء يشير بلسان حاله ومقاله إليك.

فالجهل بك ــ يا رب ــ ليس ناشئا عن دليل أو علم أو فلسفة أو فكر.. وإنما هو ناشئ من تلك الأمراض التي سيطرت على البصيرة، فحالت بينها وبين الرؤية الصحيحة للأشياء..

لقـــد ذكـــرت ذلـــك يـــا رب.. وبينت ســـره، فقلت: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَـاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَإِنْ يَـرَوْا كُـلَّ آيَـةٍ لَا يُؤْمِنُـوا بِهَـا وَإِنْ يَـرَوْا سَـبِيلَ الرُّشْـدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَـبِيلًا ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف: 146]

فالكبر والغفلة والغرور هي الأمراض التي تسـيطر على عين البصـيرة، لتجـادل في البـديهيات الواضـحات، ولـو أنهـا طبقت ذلك الجدال على كل الحقائق التي تؤمن بها، لتـبرأت منها، وتحولت إلى السفسطة التي تنكر كل شيء.

ولذلك كان أعقل الملاحدة وأكثرهم انسجاما مـع نفسـه أولئــك السفســطائيين، لأنهم احــترموا عقــولهم، فطبقــوا إنكارهم لك على الأشياء.. ذلك أنـه لا يمكن لعاقـل أن يجمـع بين إقراره بوجود الأشياء، ثم لا يقرّ بك.

ذلك أن مثله مثل الذي يقر بوجود التصميم البديع، ثم لا يقر بوجود المهندس، أو يقر بوجـود الشـعر الـراقي، ولا يقـر بوجـود الشـاعر، أو يقـر بوجـود التريـاق الشـافي، ثم لا يقـر بوجود الطبيب.

يا رب.. وأسـألك أن تخلص نفسـي من كـل ذلـك العفن الذي يحول بينها وبين جمال معرفتـك.. وأن تخلص عقلي من كل القيود التي تحول بينـه وبين الرحلـة إليـك.. فـأنت الغايـة والمنتهى، وأنت البداية والأسـاس.. ومن لم ينطلـق منـك لم يصل إلى شيء.. ومن لم تكن أنت قصـده فلن يصـل إلا إلى السراب.

القابض الباسط

إلهي يا من وصفت نفسك بالقبض والبسـط، فكـان من أسمائك الحسنى: القابض الباسط.. وهما اسمان ارتسما في كلماتـك جميعـا الصـامتة والناطقـة.. فقـد قلت في كلماتـك المقدسـة: {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُـطُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ} [البقـرة: 245]

وقد وجـدت حـروف هـذين الاسـمين الجليلين مكتوبـة.. ليس في كلماتـك المقدسـة فقـط، وإنمـا في كـل الأشـياء والمواقـف.. فكلهـا من فيض قبضـك وبسـطك، وعطائـك ومنعك.. ابتداء من نفسي التي أعيش مشاعرها وأحاسيسها، وانتهاء بأبسط ذرة في الكون.

والغفلة عن علاقة ذلك بك ـ يا رب ـ وبأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، هو الذي يوقع الغافلين في الشـرك، ويجعلهم يتيهون في البحث عن الأسـرار والحقـائق بمـا يتوهمونـه من الأوهام التي لا وجود لها.

إن الغفلة ـ يا رب ـ جعلتنا نتوهم أن القبض الـذي يـنزل على نفوسنا، فيملأهـا بالكآبـة، سـببه ذلـك العـوز المـادي، أو ذلـك الفقـر العـاطفي، أو تلـك الحاجـات الـتي تهفـو إليهـا نفوسنا.. ولذلك نسعى لذلك العلاج الوهمي.. ثم نكتشف بعد ذلك أن الغنى المادي والعاطفي وغيرهما لم يغنيا عنا شـيئا.. بل كانا مجرد مهدئات، زال مفعولهـا بعـد اسـتعمالها لمـرات محدودة معدودة.

ولو أنا علمنـا أن ذلـك القبض الـذي أصـابنا منـك، وأنـك صـاحبه، وأنـه من تجليـات اسـمك القـابض.. وليس من ذلـك

الفقر المادي أو العاطفي.. ولو علمنا أنك لم ترسل إلينا ذلك القبض وما يرافقه من الاكتئاب والإحباط والكدر عقوبة، وإنما أرسلته تنبيها وتأديبا لنعود إلى حقيقتنا حتى لا تقتلنا الغفلة، فنتيه في وديان البسط والراحة والسرور غافلين عن سر رحلتنا في هذا العالم، وساكنين عن الصعود في المعارج التي نصبتها لنا لنترقى في مدارج الكمال.

لو علمنا ذلك يا رب.. لتركنا كل شيء، ولجأنا إليك، ذلك أنه لا يسقينا بأكواب السعادة الخالصة غيرك.. بل إن اسمك الكريم هو الدواء الوحيد الذي يعالج كل أصناف القبض ما قدم منها وما استجد.. فاسمك دواء، وذكرك شفاء، وطاعتك غنى.

يا رب.. لقد ذكرت لنا ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]

والطمأنينة هي تلك السكينة التي تمتلئ بها النفس، وتمتلئ معها بكل أنواع النشوة والسعادة والسرور التي تجعل صاحبها يعيش عوالم الجمال المطلق التي لا توفرها له كل خمور الدنيا ومخدراتها التي يهرب إليها الغافلون ليعالجوا القبض الذي يصيب قلوبهم.

ولو أنهم تدبروا كلماتك المقدسة لعلموا أن ذلك الكدر والكآبة ليس سوى مظهر من مظاهر الغفلة عنك، أو هي تجل من تجليات اسمك القابض.. فأنت الذي بيدك مفاتيح السعادة، كما أن بيدك مفاتيح الشقاء.. في الدنيا والآخرة.. وقد ذكرت ذلك في كلماتك المقدسة، فقلت ـ تعد المؤمنين المقبلين عليك ــ: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ} [النحـل: 97]، وقلت ــ تتوعـد المعرضـين عنـك ـ: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُـرُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: 124]

إلهي.. فهب لي من بسـطك مـا يرفعـني عن كـدورات الدنيا، ويجعل قلبي متعلقا بك، سائرا في طريقك، مقبلا بكل كيانـه عليـك.. وأعـوذ بـك من كـل بسـط وسـرور وسـعادة تحجبني عنك، وتملؤني بالغفلة، لأخسر بذلك روحي وحقيقتي التي لا يمكن أن يعوضها كل كنوز الدنيا.

إلهي.. عنـدما أخـرج من عـالم نفسـي، وأدخـل عـوالم الآفاق المحيطة بي أرى حروف قبضك وبسـطك مكتوبـة في كل الكائنات.. فـالزهرة تتفتح، وترسـل أريجهـا عنـدما يتجلى عليهـا جمـال بسـطك.. وتنقبض وتـذبل عنـدما يتجلى عليهـا جمال قبضك.. والعارف هو الذي يعرفـك في كليهمـا، ويـراك في كليهما، ويعيش معك في كليهما.

والريح عندما ترسل.. والليل عندما يعسـعس.. والصـبح عندما يتنفس.. كلهم يتحركون من خلال قبضك وبسطك..

لقـد ذكـرت ذلـك في كلماتـك المقدسـة، فقلت ــ عن الرياح ـ: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَـاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ } [الفرقان: 48].. وقلت عن الميـاه: {وَهُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْـدِ مَـا قَنَطُـوا وَيَنْشُـرُ رَحْمَتَـهُ وَهُـوَ الْـوَلِيُّ الْحَمِيـدُ} [الشورى: 28].. وقلت عن الفلـك: { هُـوَ الَّذِي يُسَـيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْـكِ وَجَـرَيْنَ بِهِمْ بِـرِيحٍ طَيِّبَـةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُـلِّ مَكَـانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا

مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [يونس: 22]

وهكذا، فإن كل ما نراه في عوالم الآفاق والأكـوان ممـا نستبشر له، أو نحـزن بسـببه، ليس سـوى تجـل من تجليـات بسطك وقبضك.. والعارف هـو الـذي يقـرأ حـروف الرسـائل التي ترسلها إلينا من خلال ذلك القبض والبسط.. والغافل هو الذي يملأ بسـطه بالسـرور الكـاذب، واللهـو الفـارغ، والأمـل الطويل.. ويملأ قبضه بالقنوط من رحمتك، والهـرب إلى كـل العقاقير التي تقتل عقله وروحه وكل جمال فيه.

إلهي.. يا من بيده كل شـيء.. لجـأت إليـك، وأنـا عبـدك الضــعيف صــاحب القلب المتقلب.. أن تحفظــني من آثــار الأشياء، حتى لا تبعـدني عنـك.. فالسـعادة كلهـا في جـوارك، والطمأنينــة كلهــا في رحابــك.. وهــل يمكن أن يطمئن لأحــد عيش وهو يقاطع ويعادي ويغفل عمن بيده القبض والبسط؟

يا رب.. لقد رأينا بأم أعيننا أولئك الذين بذلوا كل حياتهم من أجل الثروة والجاه وكل أصناف المتع، لكنهم ماتوا بعـدها منتحرين.. لأنهم توهموا أن البســط في تلـك الـثروة والجـاه، ولم يعلمــوا أن البســط بيــدك.. فــأنت الــذي ملأت قلــوب الصالحين بالسعادة من غير أن يكون لهم مال ولا متاع.. كما ملأت قلوب المستكبرين بالكدر مـع أن كـل شـيء كـان لهم وبجانبهم.

أنت يا رب صاحب مفاتيح السعادة والشـقاء.. والسـرور والكدر.. والفرح والحزن.. والنشوة والانقباض.. توزعهــا لمن تشاء، وكيف تشاء.. فاجعلنا من أهل السعادة والسرور، ومن أهل جنة الدنيا وجنة الآخرة.. فالجنان بيدك، والنيران بيدك.

أنت ــ يـا رب ــ من حـول نـيران إبـراهيم جنانـا وبـردا وسلاما.. فكلما حولتهـا لـه كـذلك، فحـول كـل النـيران الـتي تحيط بنا إلى برد وسلام.. حتى لا يصيبنا منهـا شـيء.. فـأنت ربنا ورب كل شيء..

الخافض الرافع

إلهي.. أيها الخافض الرافع.. المعز المذل.. من بيده أقدار الخلق يخفضها متى شاء، وكيف شاء، ويرفعها متى شاء وكيف شاء.

أسألك يا رب أن تجعلني من الذين رفعت أقدارهم برضاك، لا بسخطك، وبجودك لا بمنعك، وبفضلك لا بمقتك.

وأعوذ بك ـ يا أكرم الأكرمين ــ أن تستدرجني لمعارج الرفعة، حتى إذا وصلت إلى قمة قممها رميتني في الهاوية التي لا قرار لها.

وأعوذ بك يا رب أن تجعلني كأولئك الذين باعوا ذممهم ودينهم وأخلاقهم وكل قيمهم لأجل الظفر بذلك الجاه المحدود، والسمعة المشوبة، والشهرة المقيتة.

وأسألك يا رب أن تكون أنت جاهي.. فحسبي أن تراني.. وحسبي أن تعرفني.. وحسبي أن ترضى عني.. وحسبي أن تشرفني بحبك وقربك ولطفك..

فمن رضيت عنه يا رب وأحببته وقربته.. لا يبتغي عنك بدلا، ولا يرضى عنك متحولا، ولا يهتم لغيرك، أرضوا أم سخطوا؟.. أحبوا أم أبغضوا؟.. أعجبوا أم نفروا؟

من عرفك يا رب.. وعرف عظمتك لم يطلب الجاه عند غيرك، ولم يرض الرفعة عند سواك..

اجعلني يا رب مثل بلال الذي وضعوا الصخرة على صدره ليهينوه.. لكنه لم يلتفت لهم، وإنما التفت إليك، وكان

يصيح في ذلك الموقف جذلان مسرورا بنظرك إليه، وهو يقول فرحا: أحد أحد.

يا رب.. واجعلني مثل عبدك الصالح الإمام الحسين.. ذلك الذي مزقوا جسده، وقطعوا رأسه، ثم رفعوه فوق الرماح، وهم يتوهمون أنهم أهانوه، أو خفضوه، بينما لم يهينوا إلا أنفسهم.. فقد توجته بكرمك في ذلك الحين الذي قطع فيه رأسه بكل تيجان العزة والرفعة والكرامة.. وتحول من عالم الدنس والمعايير المغلوطة إلى سيد شباب أهل الجنة.

يا رب واجعلني مثل نبيك ﷺ.. ذلك الذي تحمل في سبيلك كل ألوان البلاء، حيث حرشت به قريش وكل من ساندها من المجرمين الأطفال ليضربوه، والشعراء ليهجوه، والقصاصين ليكذبوا عليه، والوضاعين ليضعوا الأحاديث التي تسيء إليه.. لكنه لم يكن يلتفت لكل ذلك.. بل كان نظره إليك، وفرحه بك.. وعزته ورفعته معك وفي القرب منك.

يا رب.. واجعلني مثل أوليائك جميعا.. أولئك الذين ضحوا بسمعتهم وكرامتهم من أجلك.. فنطقوا بالحق الذي سكت عنه الجبناء، عبيد السمعة والشهرة، وواجهوا الباطل في أوجه قوته.. ولم يبالوا بأنفسهم في ذاتك.

إلهي.. وأعوذ بك من أولئك الذين انتكسوا بعدما رفعتهم بالعلم.. لكن حرصهم على سمعتهم وشهرتهم وجاههم وصيتهم جعلهم يضحون بالحقائق في سبيل تلك القلوب التي قيدتهم واستعبدتهم من دونك.

إلهي أعوذ بك من أن أكون من تلك الطائفة التي مثلها

بلعم بن بـاعوراء الـذي ضـحى بصـحبته للأوليـاء في سـبيل صحبته للأشقياء، فأنزلت تقـول فيـه: {وَاتْـلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: 175، 176]

أو ذلك القرشي الـذي سـمع كلماتـك المقدسـة، وأدرك إعجازهـا، لكن خشـيته على سـمعته جعلتـه لا يقـرّ بكونهـا كلماتك، وإنما بكونها سحرا، وهو يعلم أنها ليست كذلك.. لقد قلت تصفه: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَـهُ مَـالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَـهُ تَمْهِيـدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَـانَ لِآيَاتِنَـا عَنِيـدًا (16) سَـأُرْهِقُهُ صَـعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَـدَّرَ (18) فَقُتِـلَ كَيْـفَ قَـدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَـدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَـرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَـرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُـؤْثَرُ (24) إِنْ هَـذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)} [المدثر: 11 - 25]

أو كأولئـك المسـتكبرين الـذين طلبـوا من أنبيائـك أن يصرفوا المستضـعفين حـتى لا تهـان كـرامتهم، أولئـك الـذي ذكرت مقولتهم: {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَـرَاكَ اتَّبَعَـكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَـلْ نَظُنُّكُمْ كَـاذِبِينَ} [هـود: 27]، لكنهم اكتشـفوا بعـد حين أن أولئك الذين سموهم أراذل كانوا أصحاب جـاه عظيم عنـدك، وعند ملائكتك، وعند أنبيائك.

وأعوذ بك يا رب أن أكـون كأولئـك الـذين يـدّعون العلم

والمعرفـة والحكمـة لكنهم ــ بعـد أن يرتفـع جـاههم، ويـذيع صيتهم ـ ينسون كل الحقائق التي تعلموهـا، استسـلاما لـذلك الصنم الذي شكلوه لأنفسهم، وراحوا يطلبون الخلق بعبادته.

إلهي.. أيها الخافض الرافع.. أسألك أن ترفعني في ذلك الـــوقت الـــذي يُخفض فيـــه المســـتكبرون، ويرفـــع فيـــه المستضـعفون في ذلـك اليـوم العظيم الـذي ذكرتـه، فقلت: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنًـا يَعْبُـدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: 55]

وأعوذ بك يا رب أن أرفع في ذلك الـوقت الـذي تنتكس فيه الحقائق، وتضل فيه القيم.. ويصـبح سـيد القـوم أكـثرهم نفاقا ودجلا وكذبا.

يـا رب.. وإن جعلت لي في قلـوب عبـادك أي رفعـة أو مكانة.. فأعوذ بك أن أستسلم لها، أو أرضـى عنهـا، أو ألتفت إليها.. حتى لا تستعبدني قلوبهم دونك، وحتى لا يصبح رضاهم غايتي، لا رضاك.

يا رب.. أسألك أن أكون كذلك الصالح الذي قال:

فليتـك تحلـو والحيـاة مريـرة... وليتـك ترضـى والأنـام غضاب

وليت الـذي بيـني وبينـك عـامر... وبيـني وبين العـالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين... وكل الذي فـرق الـتراب

تراب

الجبار القهار

إلهي.. أيها الجبار القهار الـذي أعطى لعبـاده كـل أنـواع الفضل والكرامة، فجبر بـذلك كسـرهم، وقهـر بـذلك كـل مـا يؤذيهم، ومن يؤذيهم.

يا رب.. عندما أقرن بين أسمائك الحسـنى الـتي تجتمـع فيها كل أنواع الرحمة واللطف والعفو والمغفرة، مع أسمائك التي يجتمع فيها القهر والغيرة والجـبروت.. أشـعر بالسـعادة العظمى.. فأنت الكامل الذي تجتمع فيه كل صفات الكمـال.. فالذي تقتصر صـفاته على الرحمـة واللطـف، ثم لا ينتقم من المتجـبرين المتكـبرين، ولا يعـاقب من يتحـدى حـدوده، ولا يجازي من يظلم عباده ضعيف لا يستحق أن يكون إلها.. وهو برحمتـه المسـتكبرين يكـون قاسـيا على المستضـعفين، وبرحمته للمتجاوزين لحدوده يكون دافعا لتجاوزها.

يا رب.. لقد رأيت من عبادك من يأنف بك عن مثل هذه الصفات، ويتوهم أن كمالك في إتاحة كل أنواع الحرية للتجبر والتكـبر والغطرسـة والظلم، ثم لا يجـازى أصـحابها بعـد كـل جرائمهم إلا بالجنان والنعيم..

يـا ليت شـعري.. كيـف يفكـر هـؤلاء.. وهم الـذين تثـور ثائرتهم، ويوجهون جام غضبهم لمن انتهـك حـرمتهم بكلمـة.. ويعتبرون غضبهم كمالا فيهم.. ويتهمون من انتهك عرضه ولم يغضب بالدياثة والبلادة.. لكنهم إن أتوا إليك فرضوا عليـك أن تكون بتلك الصفات التي أنفوا منها.

ولـو أنهم ــ يـا رب ــ قلبـوا طـرفهم في الكـون حـولهم لوجدوا أن كمالك في تـوفر كلا الصـفتين: الجلال والجمـال.. والرحمة والقهر.. واللطف والانتقام.

فأنت ـ يا رب ــ خـالق الربيـع، وخـالق الشـتاء.. وخـالق الثلج، وخـالق النـار.. وخـالق البسـمة، وخـالق الدمعـة.. أنت الذي تضحك وتبكي.. وتسعد وتشقي.. وتحن وتعاقب.

أنت يا رب الذي يغـير على حرمـات الكـون والحيـاة أن تنتهــك.. وعلى القيم الــتي فرضــتها أن يتجاوزهــا العتــاة والمـردة.. فأسـماؤك الحسـنى تقتضـي كـل ذلـك.. وجمـال الكون والحياة يقتضي ذلك.

ولذلك أمرت رسولك أن يقول مخاطبا عبـادك، ومعرفـا لهم بــك: { نَبِّئْ عِبَـادِي أَنِّي أَنَـا الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: 49، 50]

ولــذلك جعلتــه، كمــا جعلت جميــع الرســل مبشــرين ومنــذرين، فقلت: { وَمَــا نُرْسِــلُ الْمُرْسَــلِينَ إِلَّا مُبَشِّــرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُــونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأنعام: 48، 49]

وهكذا جعلت أولياءك العارفين بـك.. لا يقنطـون عبـادك من رحمتــك، ولا يملأونهم بــالجرأة عليــك.. بــل يعرفــونهم بكمالك المملوء بالرحمة والمملوء بالغيرة.

يــا رب.. تجلى قهـرك وجبروتـك وجلالـك من أن يكـون كقهــر وجــبروت وجلال المســتكبرين.. فهم يفعلــون ذلــك

لينتقموا، ويملأوا نزوات نفوسـهم الأمـارة.. وأنت المـنزه عن كل ذلك.

فقهرك يا رب قهر رحمة وعدالة ولطف.. فأنت لا تعذب المجــرمين إلا لتــؤدبهم، ولتنتقم للمستضــعفين الــذين أوذوا بسببهم..

وأنت يــا رب.. تمهلهم فــوق ذلــك بــالعمر الطويــل.. وبإرســال المبشــرين والمنــذرين.. وبــإنزال الآيــات البينــات.. وبتوفــير كــل مــا يحتاجونــه من المواعــظ والبينــات ليــتركوا غيرهم، ويعودوا إلى رشدهم.

فإن عادوا إليك قبلتهم.. وإن تمــادوا عــاقبتهم.. بحســب القوانين التي وضعتها لكونك، والكلمات التي لا مبدل لها.

يا رب.. وأسألك أن تشفي صــدري بعقــاب أولئــك الــذي آذوا أنبياءك وأولياءك والصــالحين من عبــادك.. يــا رب اشــف صدري من أولئك الذين آذوا المستضعفين، وسفكوا دماءهم، وسرقوا خبزهم، وملأوا حياتهم بالكــدر.. فكمــا ملأوهــا بــذلك، فاملأ حياتهم.

يــا رب.. وأعــوذ بــك أن أظلم أو أُظلم.. أو أكــون قاســيا كأولئك الجبارين الظالمين الطغاة..

يا رب.. فطهر قلبي ليكــون أهلا لرحمتــك، لا لانتقامــك.. ولعفوك، لا لقهــرك.. وللطفــك لا لعــذابك.. فــأنت تعلم أني لا أطيق عذابك.

يا رب.. لقد أرسلت إلينا من الرسل، وأنــزلت علينــا من الكتب، وبينت لنـــا من البينـــات، ووضـــعت في عقولنـــا من

الحقائق والمعايير ما أقمت لنا به كل الحجج.. وقــد قلت في كلماتــك المقدســة تــذكر ذلــك: {قُــلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَــةُ} [الأنعام: 149]، وقلت: {رُسُلًا مُبَشِّــرِينَ وَمُنْــذِرِينَ لِئَلَّا يَكُــونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَــانَ اللَّهُ عَزِيــزًا حَكِيمًــا } [النساء: 165]

ولذلك ــ يــا رب ــ لن يتعــرض لعقابــك إلا أولئــك الــذين جحدوا رسلك، واحتقروا كتبك، وتلاعبت أهواءهم بما وضــعت في عقـــولهم من الحقـــائق.. ولـــذلك كـــانوا أهلا لبطشـــك وانتقامك، بعد أن لم يبقوا أهلا لرحمتك ولطفك.

يا رب.. وأسألك يا جابر المنكســرين، وقــاهر الظــالمين، أن تجبر كسري، وتقهر كل من تعدى علي وظلمــني مســتغلا إمهالــك.. فكن أنت المنتقم منــه، واجعــل كيــده في نحــره، وقني وق المؤمنين من شره.

يا رب.. أنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.. فاستجب دعائي، وأعطني طلبتي، واجعلني من أهــل رحمتــك ولطفــك وإجابتك.. وأخرجني وأخرج المستضعفين من نــير المتكــبرين المتجــبرين.. يــا رب فــاقتلهم بأســلحتهم، ودمــرهم بعــددهم وعــدتهم، وقيــدهم في قيــودهم الــتي أعــدوها للمظلــومين المحرومين.. إنك أنت أرحم الراحمين.

العفو الغفور

إلهي.. أيها العفو الغفور.. الحليم الصبور.. الذي يعطي لعباده الفرصة تلو الفرصة، ليرجعوا إليه، ويصححوا أخطاءهم، فإذا فعلوا ذلك أقبل عليهم، ومسح عنهم كل سيئاتهم، وطهرهم منها، وكأن شيئا لم يحصل منهم.

لقد سمعتك في كلماتك المقدسة تخاطب عبدك المذنب، وتقول له بكل حنان ورحمة[1]: عبدي.. متى جئتني قبلتك.. إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك.. إن تقربت مني شبرا تقربت منك ذراعا.. وإن تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.. لا تحجبك الخطايا عني، فلو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة.. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك..

وسمعتك تقول ـ واصفا حال عبادك وإعراضهم مع كل ذلك الفضل والحنان الذي تبديه لهم ـ: هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما.. عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم..

وسمعتك تصف الجاحدين من عبادك الذين لا يرضيهم شيء، فتقول: إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.. من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي

[1] () وردت هذه العبارات في أحاديث قدسية متفرقة.

أعطيته فـوق المزيـد، ومن أراد رضـاي أردت مـا يريـد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

وسمعتك تـذكر حنانـك ولطفـك على كـل عبـادك، البـار منهم، والفاجر، فتقـول: أهـل ذكـري أهـل مجالسـتي، وأهـل شـكري أهـل زيـادتي، وأهـل طـاعتي أهـل كرامـتي، وأهـل معصـيتي لا أقنطهم من رحمـتي، إن تـابوا إلي فأنـا حـبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.. من آثرني على سواي آثرته على سـواه، الحسـنة عنـدي بعشـر أمثالهـا إلى سـبعمائة ضـعف إلى أضـعاف كثـيرة، والسـيئة عنـدي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.. أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلـل.. رحمـتي سـبقت غضـبي وحلمي سـبق مؤاخـذتي وعفـوي سـبق عقوبـتي، أنـا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها..

وقـد سـمعتك في كلماتـك المقدسـة الـتي أنزلتهـا على خاتم رسلك، تقول ـ مخاطبا عبادك ـ بكل لطـف، وأنت الإلـه العظيم الغني عنهم، وعن كل شيء: { قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]

إلهي مـا أعظم حيـائي منـك، وأنـا أسـمع منـك هـذه الكلمـات المليئـة بـاللطف والرحمـة والحنـان، وأنت الإلـه العظيم الذي يملك كل شـيء، وقـد قلت في كتابـك الكـريم: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

ومع ذلك ـ رب ـ تصـبر على عبـادك، وتمهلهم، وتعطيهم الفرص الكثيرة، بل تأمر أنبيـاءك وأوليـاءك والمصـطفين من

عبادك أن يتعاملوا معهم بكل لطف وحنان، فقد أرسلت كليمك موسى إلى فرعون، ذلك العتل الغليظ الذي قال: { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: 24]، لتأمره بأن يقول له: {قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 44]

ونحن يا رب القاصرون المستضعفون الممتلئون بكل أنواع القصور والنقص، تقوم قيامتنا، ويزلزل كياننا، لأجل مواقف بسيطة تحصل لنا، ثم لا ننال راحتنا إلا بعد أن نشفي غلنا من الذي آذانا وعادانا وأخطأ في حقنا.

يا رب.. فهب لنا من جميل الصبر ما نتأدب فيه بأدبك، ونتخلق فيه بخلقك.. فنسامح ونعفو، ونصبر، ونكظم غيظنا، ونتيح الفرص لمن أخطأ في حقنا.. فإذا ما جاءنا معتذرا، قبلنا منه، ومحونا ما بيننا وبينه من إساءة، وجددنا الصحبة معه، وكأن شيئا لم يحصل.

إلهي.. أنت تعلم تقصيري في حقك، وضعفي عن ذكرك، وكسلي عن القيام بعبادتك.. فهب لي من جميل العفو والمغفرة ما يغطي قصوري ونقصي.. وهب لي من جميل فضلك ما يملأ قلبي بتلك المعاني المقدسة التي وهبتها للعبّاد من عبادك، والزهاد من أوليائك، والعارفين من أحبابك.

إلهي.. وإن بدر مني تقصير، فأنت تعلم أنه ليس جهلا بحقك، ولكنه الكسل والغفلة وأهواء الدنيا.. وإلا فإن قلبي يحن أن يقضي عمره ساجدا لك، منيبا إليك، لا تجده إلا حيث أمرت، ولا تفقده إلا حيث نهيت.

يا رب.. فعاملني بنيتي، ولا تؤاخذ جسدي بتقصيره، ولا

نفسي بغفلتها، ولا لساني بفتوره، ولا جسدي بقعوده..

يا رب.. واجعل مغفرتك لي وعفوك عـني سـببا لحيـائي منك، لا لجرأتي عليك، حتى أتطهر من كل شيء يحول بيــني وبينك، وأمتلئ بكل ما يقربني منك.

إلهي.. وهب لي من جميـل اليقين مـا يحـول بيـني وبين اليأس من عفوك ومغفرتك ورحمتك، فأنت أرحم الــراحمين، وأنت الغفار الذي لا تثقل على مغفرتـه الـذنوب ولـو كـثرت، ولا يعجز عن الصفح عن أصحابها، ولو أسرفوا.

إلهي.. وأعوذ بك من أن يكون صبرك وصـفحك وحلمـك عني قائدا لي إلى معصيتك، أو التقصير في حقك، بل اجعلــه قائدا لي لأعظمك وأقدسك وأحبك.

وهب لي ـ يا رب ــ من جميـل العصـمة مـا عصـمت بـه أنبياءك وأولياءك، فحفظتهم من نزغات الشــياطين، وجعلتهم لك من المخلَصين، فلا تمـر بأذهـانهم غوايـة، ولا تخطـر على بالهم غفلة.

يـا رب.. واجعـل اسـتغفاري لـك اسـتغفار الصـادقين، لا الساخرين المستهزئين، الذين لا يعدو استغفارهم ألسنتهم.

يـا رب.. واجعـل اسـتغفاري لـك مثـل اسـتغفار أنبيائـك وأوليائك.. استغفار ترق، لا استغفار تـدنّ.. ومن غين الأنــوار، لا من غين الأغيار.. فأنت تملك نفسـي وقلـبي وكـل كيـاني.. فاجعلني لك وحدك، وهب لقلبي سجدة أبدية لا ينهض بعــدها أبدا.. إنك أنت أرحم الراحمين.

الوهاب الشكور

إلهي.. يا صاحب الكرم العظيم.. يا جواد.. يا وهـاب.. يـا شـكور.. يـا من لا يضـيع عنـده سـعي السـاعين.. ولا اجتهـاد المجتهدين.. بـل يجـازيهم عليـه، ويضـاعف لهم الجـزاء.. بـل يتقبـل منهم النقـير والقطمـير.. ويضـاعفه بشـكره وجـوده أضعافا لا تعد ولا تحصى.

إلهي.. ما أعظم حيائي منك، وأنا الذي أطمع في جودك وكرمك وشكرك، مع أن كل مـا وهبتـني من فضـلك ولطفـك وهدايتك..

فلولاك لم اهتـد إليـك.. ولـولاك لم أعبـدك.. ولـولاك لم أسـر إليـك.. فقـد اجتـذبتني بجـواذب لطفـك، وحننت علي بسـوابغ مننـك إلى أن صـرت على بـاب أعتـاب جـودك، فغمرتني منها بما لا طاقة للساني بإحصائه وعده.

يا رب.. ومن ذا يطيق أن يحصي نعمـك.. وهي لا حـدود لها، كما لا حدود لك.. وهي لا نهاية لها، كما لا نهاية لك..

يا رب.. لو جعلت لنا في كـل خليـة لسـانا، وعلمت كـل لسان كل أنواع المحامد ما أطقنا شـكرك.. فـأنت أعظم من أن يحـاط بشـكرك، كمـا أنـك أعظم من أن يحـاط بـك.. فشكرك منك، وشكرك تابع لذاتك، وذاتك لا حدود لها.

إلهي.. ما عسـاي أقـول.. وأنـا الـذي لا أنطـق إلا بإذنـك وفضلك.. ولولاك لعُقد على لسـاني، ولـولاك لعُقـل عقلي أن يعرفك، أو يحمدك، أو يثني عليك.

يا رب.. فكما أطلقت لساني بشكرك، فـاملأ كـل كيـاني بمعرفتك.. واملأ كل قلبي بمحبتـك.. فأنـا لا أريـد سـواك، ولا غاية لي إلا رضاك.

يـا رب.. أعـوذ بـك من أن تجعـل مـا وهبتـني من مننـك السابغة حجابا يحول بيـني وبينـك، فـأفرح بنعمـك، وأنسـاك.. وأنشغل بهـا عنـك.. فيكـون في ذلـك حجـابي.. ويكـون ذلـك جحيمي..

فما الجنة لولا معرفتك والتواصـل معـك ومحبتـك.. ومـا النعيم سوى أن تلتذ عين قلبي بمشاهدتك ومشاهدة عظمتك والفناء فيها عن كل شيء.

فاجعــل شــكرك لي على طــاعتي أن تهبــني فيهــا من الخشوع والخضـوع والذلـة والمحبـة مـا طلبتـه مـني حـتى لا تكون أعمالي أجسادا بلا أرواح، وأشباحا بلا معاني.

يا رب.. واجعل شكرك لي على طاعتك أن أداوم عليها، كما أمرتنـا، وكمـا تحب.. حـتى لا تجـدني إلا حيث أمـرت، ولا تفقدني إلا حيث نهيت.

يـا رب.. تعـالى شـكرك أن تكـون لـه علـة مـني أو من طاعتي القاصرة.. بل هو جود محض منك.. وما أنا إلا الغـارق في بحار فضلك، المستقر في جنان جودك.

يا رب.. فاغفر لي طمعي في فضلك الذي يعقب قيامي بما أوجبت علي من طاعتك، فأنا لم أفعل ذلك لاعتقادي بـأن عملي هو الذي أهلـني لجـودك وشـكرك، ولكـني فعلت ذلـك لاعتقـادي في كلماتـك المقدسـة الـتي قـرنت لنـا فيهـا بين شكرك وطاعتك، وبين عبادتك وفضلك.

يا رب.. وأنا أعلم أن طاعتـك لم تكن لتصـدر مـني لـولا إذنك.. وفرحي بإذنك أعظم من فـرحي بهـا.. فإنـك مـا أذنت لي في طاعتك إلا لأنك تريد أن تقربني منـك، وتصـلني بـك.. ووصلك عنـدي أعظم من كـل طاعـة.. وقربـك عنـدي أعظم من كل نعمة.

إلهي.. أنا عبدك الفقير الـذي أنعمت عليـه بإخراجـه من ظلمات العدم إلى نور الوجود.. ثم أنعمت عليـه بالحيـاة بعـد المــوات.. ثم أنعمت عليــه بالــذكر بعــد أن لم يكن شــيئا مذكورا.. ثم أنعمت عليه بأن عرفته بك، وهو في عالم الذر.. ثم عرفته بك بعد أن أخرجته إلى هذه الدنيا.. ثم أنعمت عليه بأن يكون من أمة خاتم رسلك.. ثم أنعمت عليـه بـأن يهتـدي بهديه، ويسـير على خطـاه، ويسـتن بسـنته.. ثم أنعمت عليـه بأن يقرأ كلماتك المقدسة، ويعيش معانيها.

يا رب.. كيف أحصي ما أنعمته علي من فضـلك.. فـأنت لم تخرجني في سني الفـترة، ولا في عـالم الجهالـة، ولا في بــوادي الضــلالة.. بــل أنعمت علي بالبصــيرة بعــد البصــر، وبالمعرفة بعد العلم، وبالإنابة بعد الجهالة.. فلك الحمــد على ذلك كله.. ولك الشكر الذي تنقطع معه الأنفاس.

إلهي هب لي من جميل شكرك ما يجعلـني أحمـدك في كــل الأحــوال والأوقــات.. ومــع كــل النعم والآفــات.. فــأنت المحمود في كل الأحوال، وأنت المشكور في كل الأوقات.

القريب المجيب

إلهي.. أيها القـريب المجيب الـذي تعـالى أن يحتـاج إلى المكان أو التنقل.. فهو الغني بذاتـه عن كـل شـيء.. وتعـالى عن الحدود، فهو المطلق الذي يحيط بكل شيء.. وتعالى عن الحلـول والاتحـاد، فهـو المـنزه عن أن يكـون فيـه جـزء من مخلوقاته، أو يكون فيهم جزء منه.

إلهي.. لقد تاه الكثير من خلقك ـ عندما أعملوا عقـولهم القاصرة في معاني قربـك.. فبعضـهم راح ينفيـه، ويـزعم أن قربك من خلقك ليس سوى علمك بهم، وإجابتك لدعائهم مع أنـك صـرحت في كتابـك العظيم بقربـك الحقيقي، لا بقربـك المجازي.

لقد قلت ـ يا رب ـ في كلماتك المقدسة تبشـرنا بقربـك الحقيقي منـا: {مَـا يَكُـونُ مِنْ نَجْـوَى ثَلَاثَـةٍ إِلَّا هُـوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُـوَ سَادِسُـهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِـكَ وَلَا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: 7]

وأخـبرت الـذين يسـتخفون بأنـك معهم، ولسـت بعيـدا عنهم، فقلت: {يَسْـتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْـتَخْفُونَ مِنَ اللّـهِ وَهُوَ مَعَهُم} [النساء 108]

وأبلغتنا بتلك البشارة العظيمة التي أخبرتنا فيها بمعيتـك المطلقة، فقلت: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ} [الحديد 4]

بل أخبرتنـا أن قربـك منـا لا يمكن تصـور مـدى حـدوده،

فقلت: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق 16]

يا رب.. آمنا بما أنزلت.. وصدقنا بما ذكرت.. وصدقنا رسولك حين قال لمن رآهم يرفعون أصواتهم بالدعاء: (أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) [1]

يا رب.. إنا وإن كنا مسلمين لكلماتك المقدسة في ذلك التصديق، إلا أن الكلمات التي أودعتها في عقولنا وفطرنا دعتنا إلى ذلك كما دعتنا إليها كل كلماتك المقدسة التي أنزلتها على أنبيائك.. فعدم قربك يعني بعدك.. وبعدك يعني انحصارك وحدودك.. وانحصارك وحدودك في عالم الأجسام والقيود، يجعلك متعددا، أو قابلا للتعدد.. فكل محدود معدود.. وكل من حصره المكان يمكن أن يكون معه ثان.

يا رب.. وقد جعلت فطرنا تسلم لذلك وتفرح به.. ولا تسأل عن كيفيته.. فأنت صاحب الغيب المطلق.. والذي يريد أن يتصورك أو يتخيلك أو يتوهمك يقع في فخاخ القياس والتشبيه، ويجعلك مثل خلقك، ويحكم عليك بمثل أحكامه عليهم.. فيفرض عليك القوانين التي فرضتها عليهم.. ويلزمك بالصفات التي جعلتها لهم.

يا رب.. كل من رام البحث في ذاتك وقع في الوهم.. وسيطر عليه الهوى.. لأنه كالأعمى الأصم البصير المسجون في قعر الأرض، والمحاط بجميع الظلمات، ومع ذلك يتجرأ في وصف الأكوان والمجرات، والكون المرئي والكون

1() البخاري 13/ 372 ح 7386.

المحجوب.

أو كذلك التلميذ البليد الكسول الـذي لم يجـاوز مرحلتـه الابتدائية، وهو يريد أن يفهم أعقد القضـايا الفلسـفية، ويحـل أصعب المعادلات الرياضية.

والأمر بالنسبة لك أشد.. فلا مقارنة بينـك وبين خلقـك.. ولا شبه بينك وبينهم في أي حال من الأحوال.. وقـد قلت في كلماتك المقدسة: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْبَصِـيرُ} [الشورى: 11]

يـا رب.. وكمـا أنزهـك عن البعـد والمكـان.. أنزهـك عن الحلول والاتحاد، فقربك من خلقك لا يعني مماسـتك لهم، ولا مماستهم لك.. ولا كونك جزءا منهم.. ولا كونهم جـزءا منـك.. فتعاليت أن يكون فيك شيء من خلقك، أو يكون فيهم شـيء منك.. وقد قلت في كلماتك المقدسة تعتب على المشركين: {وَجَعَلُـوا لَـهُ مِنْ عِبَـادِهِ جُـزْءًا إِنَّ الْإِنْسَـانَ لَكَفُـورٌ مُبِينٌ} [الزخرف: 15]

يـا رب.. وأنـا أسـلم لـك بـذلك كلـه.. ولا أدع لعقلي ولا لوهمي ولا لكشـفي ولا لخيـالي أن يتصـرف في فهم حقيقـة ذلك.. فأنت أجل من أن تحد بفهومنا، أو تحيط بك عقولنا، أو يصل إلى جلالك كشفنا..

ولـذلك حسـبنا من معرفـة قربـك أن نذوقـه ونعيشـه ونؤمن به ونسلم له.. ونشعر أنك معنا كما ذكرت.. ثم نسعى بعد ذلك لأن نكون معك.. ونصل إليك، ونتواصل معك..

فالقرب منـك يـا رب.. ليس قـرب أجسـام وإنمـا قـرب معارف ووصال.. فمن عرفك، وتواصل معك، وصـرت أنيسـه

وجليسه، وملأت قلبه بحبك، كان الأقرب إليك، والداني منك.

يـا رب.. لقـد جمعت في كلماتـك المقدسـة بين قربـك وإجابتك، فقلت: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ} [البقـرة: 186]، وقلت ــ على لسـان بعض أنبيائـك ــ: {فَاسْـتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَـرِيبٌ مُجِيبٌ } [هود: 61]

يا رب.. ما أجمـل هـذه الكلمـات.. ومـا أجمـل المعـاني التي تحويها.. فقربك منا ليس مجرد قـرب معنـوي.. بـل هـو قرب له آثاره القريبة والبعيدة وفي كـل شـيء.. فـأنت ترانـا وتسـمعنا وتعلم كـل شـيء يحصـل لنـا أو نفعلـه عن قـرب وحضور، وشهود وعيان..

وأنت يا رب.. لا تكتفي برؤيتنـا وسـماعنا، وإنمـا تتـدخل برحمتـك ولطفـك، فتجيب دعواتنـا، وتحقـق غاياتنـا، وتبلغنـا مقاصدنا.. ولا تحتاج في كل ذلك لدعواتنا.

ولكن ربانيتك لنا تقتضي منا أن نـدعوك، ونتوسـل إليـك حتى يحصل الوصال بيننا وبينك، وبالوصـال تتحقـق المعرفـة، ويتنزل الإيمان.

يا رب.. فهب لي من جميل معرفتك، ما يجعلـني أشـعر بجميل قربك، ولذيذ ذكرك، وصدق مناجاتك، حتى لا يصرفني طلب المعاش أو الخلطة عنـك، حـتى أكـون كعبـدك الصـالح الذي قال:

إني جعلتـك في الفـؤاد محـدثي... وأبحت جسـمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس...وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

أو كذلك الذي قال، وهو يزهو فرحا بقربك:

راحتي يا إخوتي في خلوتي... وحبيبي دائما في حضرتي

لم أجد عن هواه عوضا... وهواه في البرايا محنتي

حيثما كنت أشاهد حسنه... فهو محرابي إليه قبلتي

يا حبيب القلب يا كل المنى... جـد بوصـل منـك يشـفي مهجتي

قد هجرت الخلق جمعا أرتجي... منك وصلا فهـو أقصـي منيتي

الحسيب الكافي

إلهي.. أيها الحسيب الكافي..

أنت يا رب الذي تكفي عبادك كل ما أهمهم؛ فلا يحتاجون معك إلى غيرك، وكيف يحتاجون، وكل مقاليد الأمور بيدك؟

وكيف يحتاجون ومفاتيح خزائن كل شيء تحت تصريفك؟

وكيف يحتاجون وأنت المدبر لكل شيء، فلا يعزب شيء عن تدبيرك؟

وكيف يحتاجون وأنت القاهر لكل شيء، فكل شيء مذعن لك، ساجد بين يديك؟

أنت حسيب عبدك الصالح موسى حين وقع بين فكي البحر وفرعون، فراح قومه ينشرون فيه المخافة قائلين: { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء: 61]، لكن موسى الذي يعرفك رد عليهم بكل هدوء، وهو يبتسم، وينظر إليك: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]

وأنت حسيب عبد وخليلك إبراهيم إذ هم قومه أن يرسلوه إلى النار لتحرقه، فابتسم هادئا، وقال مخاطبا لكل الملائكة الذين جاءوا ليكونوا في خدمته: حسبي الله ونعم الوكيل.. فتركت أعداءه يرمونه في النار.. لكنك حولتها إلى برد وسلام.. فمفاتيح الحرق ليست بيد النار، وإنما بيدك، وأنت الذي تستطيع أن تجعلها حارقة، وأنت الذي تستطيع أن

تجعلها بردا وسلاما.

وأنت حسيب خاتم رسلك محمد الذي اضطره قومه من المشركين للالتجاء للغار، وحين أحاطوا به، ولم يكن بينه وبينهم إلا أن يرموا بأبصارهم إليه، قال بكل هدوء لصاحبه الذي امتلأ خوفا: { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]

وأنت حسيب أولئك الصالحين {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]

فكن حسيبي يا رب، كما كنت حسيبا لهم.. وكن كافي لي كما كنت كافيا لهم، وقد قلت في كلماتك المقدسة: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} (الزمر: 36)

وكيف لا تكون حسيبي، وأنت حسيب كل شيء.. فكل شيء رهن لمشيئتك وقدرتك ولطفك ورحمتك.. وكل شيء خاضع لك.. ومن اكتفى بك، كفيته كل شيء، وقد قلت في كلماتك المقدسة: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [النساء: 132]

فأسألك يا رب.. أن تكون حسبي في كل شؤوني حتى أعيش معاني قربك، ولذة وصالك، وأرى يدك الحانية وهي تمتد إلي كل حين بكل أنواع اللطف والكرامة.

إلهي أنت حسبي هاديا للسراط المستقيم.. فمن اعتمد في هدايته على عقله ضل، ومن اعتمد على فكره زل، ومن اعتمد على الخلق أسلموه إلى الهاوية..

فكن أنت حسبي الذي يكفيني أمر هدايتي، فلا أضل

وأنت معي.. وكيف أضل وأنت الهادي الذي هدى كـل شـيء، وقد قلت في كلماتك المقدسـة: {وَمَنْ يَهْـدِ اللَّهُ فَمَـا لَـهُ مِنْ مُضِلٍّ} [الزمر: 37]؟

إلهي أنت حسبي معلما.. فخـزائن العلـوم بيـدك.. وأنت الـذي تعلم من تشـاء بمـا تشـاء، وقـد قلت في كلماتـك المقدسة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [البقرة: 282]

فيا من علمت أنبياءك وأوليـاءك أصـناف العلـوم، وجلت بهم في الملك والملكوت، فعلمني كما علمتهم، وفهمني كما فهمتهم، واجعل تعليمك لي تعليم هداية وترق، لا تعليم ضلال ونزول، حتى لا أكون كذلك الذي علمته، فراح يستغل ما آتيته من العلم في تضليل خلقه، فـنزلت بـه من قمـة الهدايـة إلى هاوية الضلال، وقلت فيه: { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَـاهُ بِهَـا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ} [الأعراف: 175، 176]

إلهي أنت حسبي مربيـا.. وكيـف لا تكـون حسـبي وأنت رب العالمين.. فآت يـا رب (نفسـي تقواهـا، وزكهـا أنت خـير من زكاها، أنت وليها ومولاها) [1]

يا رب.. لقد عجزت عن تطهير نفسـي الأمـارة بالسـوء، فكن أنت المطهر لها.. واملأها بالفضائل التي ارتضيتها، وأبعد عنها الرذائل التي مقتها.. وكن أنت مربيها ومؤدبهـا ومهـذبها، حتى تصبح صالحة لتجليات جمالك وكمالك.

[1] رواه مسلم رقم (2722)

يـــا رب.. وأنت حســـبي في رزقي.. وكيـــف لا تكـــون حسبي.. وأنت الرزاق ذو القوة المتين.. وكـل مقاليـد الـرزق بيـدك.. وقـد قلت في كلماتـك المقدسـة: {وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيــدُ أَنْ يُطْعِمُـــونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُـــوَ الـــرَّزَّاقُ ذُو الْقُـــوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58]

يـا رب.. وأنت حسـبي على أعـدائي، والمتربصـين بي، والمضمرين لي السوء.. فـاكفني بقوتـك، وحـل بينهم وبيـني بقدرتك، حتى لا يصلوا إلي، كما فعلت ذلك بنبيـك، فقلت في كلماتك المقدسة:{وَجَعَلْنَـا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ } [يس: 9]

فاجعل ـ يا رب ــ كيـد أعـدائي في نحـورهم، وقـني وق عبادك الصالحين والمستضعفين من شرورهم.

يا رب.. فاستجب دعائي، وأغنني بك عن سواك، حتى لا أُذل نفسي لغيرك، وكيف أُذلهـا وأنت العزيـز الـذي لا يعـز إلا من استعز به.

وكيف أُذلها، وأنت الذي تكفي كـل من قصـدك، ولا تـرد من طلبـك، ولا تحجب من التجـأ إليـك، ولا تبعـد من تقـرب منك.

الطبيب الشافي

إلهي.. أيها الطبيب الشافي.. يا من اسـمه دواء، وذكـره شفاء.

يا من إذا ما اعترتنا العلل، وتنزلت علينا الأدواء، وفتكت بنـا الأمـراض، لجأنـا إليـه، فشـفى صـدورنا من الهم والغم.. وشـفى أبـداننا من النصـب والوصـب.. وشـفى حقائقنـا من الكروب والعيوب.

نحن نعلم ـ يا رب ـ أنـك غـني عن أن تصـيبنا الأمـراض، فإبـداعك العظيم لا يعجـز عن أن يخلـق جسـما لا يمكن لأي شيء أن يؤثر فيه، لكنـك يـا رب لم تفعـل ذلـك، لا لقسـوتك على خلقك، وإنما لرحمتك بهم.. فتلـك الأمـراض، وإن فتكت بأجسـادهم، فقـد فتكت قبـل ذلـك بغـرورهم وكـبرهم.. وهي بذلك أصابت جزءا بسيطا منهم، وهو أحقر أجـزائهم، لتحفـظ الركن الحقيقي الذي تتكون منه ذواتهم.

يـا رب.. فـأنت الغـني عن أن تصـيبني الأدواء، وأنـواع البلاء، فعافني منهـا بكرمـك، وارزقـني حسـناتها من غـير أن تذيقني ويلاتها.

يا رب.. لقد كان من فضلك العظيم على خلقك أنـك مـا أنزلت عليهم داء إلا أنزلت معه الدواء الذي يعالجـه، ليعرفـوا أن كل شـيء منـك، وأنـه بيـدك مقاليـد كـل شـيء.. مقاليـد الصحة والمرض.. ومقاليد العافية والبلاء.. وكل ذلك ليعـودوا إليك، وليتعرفـوا عليـك.. فـأنت هـو الـدواء الأكـبر، وأنت هـو المطلوب الأعظم.

وأنت يا رب.. بفضلك ومنك وكرمـك.. تجـازي المـريض الــذي تحمــل البلاء، وصــبر على اللأواء، بمــا هــو أعظم من الـدواء، وهـو ذلـك الفضـل العظيم الـذي أتحتـه لـه، بتكفـير خطاياه، وتطهير نفسه من كل الأدران التي أنزلتها به جراثيم العافية.

يا رب.. لقد ذكرت لنا في كلماتك المقدسة قصة عبـدك الصالح أيوب.. ذلك الذي اعترته الأمراض، فلجأ إليك، وصـرخ باكيـا بين يـديك، فأنجدتـه، وأنقذتـه، وأرسـلت عليـه من بـرد عافيتك ما أعاد إليه صحته، ومعها كل ما ضاع منه.

يا رب.. فكمـا رحمتـه، فارحمنـا، وكمـا شـفيته فاشـفنا، وكما أنـزلت عليـه بـرد عافيتـك ولطفـك.. فـأنزل علينـا بـرد عافيتك ولطفك {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا } [طه: 33 - 35]

إلهي جـل عطـاؤك أن يحتـاج إلى دعـائي، فـأنت أكـرم الأكـــرمين، وأنت الـــذي تعطي من ســـألك، وتبـــادر من لم يسألك.. فأسألك يا رب من جميل العافية، وحسن اللطف ما تداوي به أدوائي التي لا أعلمها، وآفاتي التي لا أراها، ونقصي الذي لا أستطيع سده.

إلهي.. وأسألك أن تعالج أمراض نفسي التي هي أخطـر من أمراض جسدي.. فطهر نفسي من كل ما يصرفني عنك، ويجعلني بعيدا عنك.

طهرني ـ يا رب ـ من العجب والغرور والكـبر والسـمعة والرياء والجبن والبخل وكـل الأمـراض الـتي تفسـد فطـرتي، وتمنع الحقائق من أن تتنزل على قلبي.

وأسألك ــ يـا رب ــ أن تعـالج عقلي، وتطهـره من تلـك الحجب التي تحول بينه وبين إدراك الحقائق، حتى يعبدك عن علم لا عن جهـل، وعن قناعـة لا عن تقليـد، وعن يقين لا عن وهم.

وأسألك يا رب أن تعـالج روحي من التثاقـل إلى الأرض، والنزوع إلى النزوات، والشره للدنيا.. فاجعلهـا يـا رب مقبلـة عليك، قابلة بك، راضية بصحبتك، مستغنية عمن سواك.

وأسألك يا رب أن تعالج لساني من كـل الآفـات لتجعلـه كألسنة رسلك وأنبيائـك وأوليائـك، مليئـا بـذكرك وشـكرك، لا يتكلم الكلمة إلا بعد أن يزنها بموازين الحق، فلا ينطـق بغيبـة ولا نميمـة ولا فحش ولا بـذاءة.. بـل يكـون طـاهرا كطهـارة الحقائق، جميلا كجمال آثارها.

وأسألك يا رب أن تعالج جميع جوارحي من كل ما يفتـك بها من أدواء الظاهر والباطن، والحس والمعنى، حـتى تـؤدي ما كلفت به من وظائف، وحتى لا تصبح نعمتك علي بها وبــالا علي وعليها.

وأسألك يا رب أن تملأني من العافية ظاهرا وباطنا حتى أقدم عليك طاهرا كما خلقتـني، قـد حفظت الأمانـة وصـنتها، ولم أفرط في السير إليك، ولا الإقبال عليك.

إلهي.. أيها الطبيب الشافي.. جـل اسـمك من أن تكـون كأولئك الأطباء الـذي وهبتهم بعض المعـارف، ليعـالجوا بعض الأدواء.. فأنت تعالج كل شيء، وبلمح البصر، ومن غير حاجـة إلى دواء، لأنك أنت الدواء.. أنت الطبيب، وأنت الدواء.

فاجعلني يا رب منشغلا بك، وبذكرك، والأنس بك، حــتى ينصرف عني كل ما يؤلمـني أو يبعـدني أو يحجبـني أو يحـول بيني وبينك.

المولى النصير

إلهي.. يـا {نِعْمَ الْمَـوْلَى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ} [الأنفـال: 40].. ويا نعم الحفيـظ ونعم المقيت.. يـا من حوائجنـا تقضـى كلهـا بكرمه.. ومخاوفنا كلها يقضى عليها بنصره.

أنت يا رب من نصـرت أنبيـاءك وأوليـاءك على أعـدائهم حين تربصــوا بهم؛ فأمــددتهم بجنــدك، وحفظتهم بحفظــك، ونصرتهم مع ضعفهم وقلة عددهم وعتادهم.

بـل كنت أنت الـذي قاتـل معهم، وقـد قلت في كلماتـك المقدســـة: {فَلَمْ تَقْتُلُــوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَــا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: 17]

أنـا أعلم ــ يـا رب ــ أن الغـافلين عن أسـرار كلماتـك.. الـواقفين مـع المبـاني دون المعـاني، سـيتعجبون من هـذا.. ويقولون: كيف يمكن أن يكـون هـذا.. وأنت القـادر على كـل شيء؟

ولم يعلموا أن قولك ذلك لا يعني سـوى تأييـدك لأولئـك المؤمــنين الطــاهرين المستضــعفين الــذين همّ أعــداؤهم باستئصالهم، فاسـتأذنوك في قتـالهم، فـأذنت لهم، ثم علمت بـأن نفوسـهم الطـاهرة قـد تتحـرج من القتـال، ولا تستسـيغ إزهاق الأنفس، فذكرت لهم أن قتلهم لم يكن بأيـديهم، وإنمـا كان بيدك، وأن ما حصل لهم لم يكن مرتبطـا بأحقـاد يحملهـا المؤمنون، وإنما هو مرتبط بعـدالتك وسـننك وقوانينـك الـتي نظمت بها الكون.

وإلا فإنــك أعظم من أن تحتــاج إلى الـــرمي، ولا إلى

القتل، ولا إلى إرسال المدد من الملائكة، فـأنت الـذي تقـول للشــيء: كن فيكــون.. وأنت الــذي أمــرك { وَاحِــدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: 50]

فأســألك يــا رب.. كمــا أمــددتهم بقوتــك ومــددك من الملائكة أن تمدني بما أمـددتهم، وأن تحفظـني بمـا حفظتهم حتى أنصرك كما نصروك، وأحمي جناب الحق كما حموه.

يا رب.. أنا أعلم أن إذنك في قتـال المعتـدين الظـالمين المسـتكبرين لم يكن نابعـا سـوى من بحـر رحمتـك الواسـعة ولطفك العظيم..

فأولئــك المجرمــون العاشــقون للــدماء، لا يمكنهم أن يرتدعوا بموعظة، ولا بحكمة، ولا بحجـة، ولا بحـوار، ولا حـتى بمعجـزة.. وإنمـا يرتـدعون بالسـيوف الـتي تقابـل سـيوفهم، والرماح التي تقابل رماحهم.

ولــذلك أمرتنــا بالإعــداد، وطلبت منــا أن نهــيئ أنفســنا لنكون جنودا للحق، حتى نقاتل أولئك الذين سـخروا أنفسـهم للشـياطين، وعبـدوهم من دون اللـه، ولـذلك أمرتنـا بقتـالهم كافة فقلت: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَــاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة: 36]

يــا رب.. أنــا أعلم أنــك لم تأمرنــا بقتلهم لــذواتهم.. ولا لأجل عقائدهم.. ولا لأجـل مـا اختـاروه لأنفسـهم.. فـأنت قـد أخبرتنا في كلماتـك المقدسـة أنـك لا تقبـل من الـدين إلا مـا خلص لك، وكان عن رغبة فيـك، وليس عن رهبـة من غـيرك، وأنه {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } [البقرة: 256]

وإنما أمرتنا بقتالهم ـ يـا رب ــ لأجـل شـركهم المرتبـط

بنصرة مشروع الشيطان في حرب الإنسان.. وهو مشروع لا يكتفون فيه بالكلمات، ولا بالمواقف، وإنما يستعملون كل مـا أطـاقوا من أدوات الشـيطان لتخـريب بنيـان الإنسـان الـذي أمرت بحفظه، ولعنت من تعرض له.

يا رب.. فاجعلنا من جنودك الذي يقاومون جنـود إبليس، ويحاربون الاستعمار والاستعباد والاستذلال والاستكبار.. وكـل أصــناف الطغيــان.. حــتى ننصــر الإنســان في حربــه مــع الشيطان.

يا رب.. وكما نصرت الصالحين من عبادك على أنفسهم وأهوائها، فانصرنا على نفوسنا، وطهرنا من كل هـوى يحجبنـا عنك، ويملأ نفوسنا بما يبعدنا عنك.

يـا رب.. نحن عبيـدك المستضـعفون، وأنت تعلم عجزنـا عن نصر أنفسـنا في البـاطن والظـاهر.. والـداخل والخـارج.. ومــع شــياطيننا وأهوائهــا.. ومــع أعــدائنا المتربصــين بنــا، والمترصدين لنا.. فكنت أنت مددنا ونصرنا.. واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا، حـتى ترتـد جميـع سـيوفهم ورمـاحهم إلى صـدورهم، ولا ينـالون منـا، وكيـف ينالون منا، وأنت مولانا، والحافظ لنا.

يا رب.. واحفظ جميع المستضعفين الذين تكـالب عليهم الأعـداء، وأذاقـوهم كـل ألـوان الهـوان.. فانصـرهم يـا رب بنصرك العاجل.. وأمددهم بمـددك الكـريم.. واجعـل لهم من عندك فرجا ومخرجا.

يـا رب.. أنـا أعلم أن كـل ذلـك الهـوان الـذي يصـيب المستضعفين لم تأذن فيـه إلا لتختـبر من يقـف معهم، أو من

يقف ضدهم، أو من يقف في الحياد مؤثرا لنفسه وهواه.

وأنك ـ يا رب ــ ستكرم المستضعفين بكرمك العظيم في هذه الدنيا، أو في الآخرة، أو في كليهما.. فلذلك مع حزني عليهم أغبطهم، لأني لا أنظر إلى حالهم في هذه الدنيا الفانية، وإنما أنظر إليهم، وهم في الآخرة الباقية.

يا رب.. كلما رأيتهم تذكرت ما نطق به نبيك حين خبرنا عن حقيقة المصير الذي يصيرون إليه، والمصير الذي يصير إليه أعداؤهم، فقد قال لنا: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض) [1]

وقص علينا قصص جنتك ونارك، فقال: (تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي) [2]

يا رب.. يا نصير المستضعفين.. يا قاهر المستكبرين.. اجعلني في حزب المستضعفين، فهم حزبك الذين أذنت بغلبتهم على أعدائهم، فقلت: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 56]

واجعلني من أنصارك الذين أذنت بنصرك لهم، فقلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ

1() الترمذي كتاب الزهد رقم (2403)

2() رواه البخاري (4850)، ومسلم (2846)

مَـرْيَمَ لِلْحَـوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَـآمَنَتْ طَائِفَـةٌ مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ وَكَفَـرَتْ طَائِفَـةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } [الصــف: 14]

يـا رب.. واجعلنـا ممن ينصـر المستضـعفين، وفي كـل مكان، ويحارب المستكبرين، وفي كل مجال، لينفذ بـذلك مـا أمرتنــا بــه، فقلت: {وَمَــا لَكُمْ لَا تُقَــاتِلُونَ فِي سَــبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: 75]

ونعوذ بك يا رب أن نكون جندا في رايـة عميـة جاهليـة، تنتصر للأهـواء، وتنشـر الأحقـاد، وتقتـل البشـر لأجـل الحجـر والشـجر.. أولئـك الـذين وصـفتهم، وأمرتنـا بقتـالهم، فقلت: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء: 76]

يا رب.. ونسـألك أن تختم حياتنـا بالشـهادة في سـبيلك، حتى تكـون توقيعـا لصـدقنا، وخاتمـة لجهادنـا.. وحـتى نلقـاك ومعنا برهان الإيمان واليقين.. فـأنت أكـرم الأكـرمين، وأرحم الراحمين.

المعطي المانع

إلهي.. أيهـا المعطي المـانع.. لا معطي لمـا منعت.. ولا مـانع لمـا أعطيت، فمفـاتح كـل شـيء بيـدك، وتصـريف كـل الأمور إليـك.. فمـرحى لمن تشـرف بطلب عطائـك.. وتعسـا وذلة لمن أهان نفسه لغيرك.

يا رب.. لـو أن كـل الخلائـق تحولـوا إلى ألسـنة سـائلة، وسألوك من كل شيء، لأعطيت كـل واحـد منهم مـا يشـتهي من غير أن ينقص من بحر عطائك قطرة واحدة.

وكيف ينقص بحر عطائك، وأنت الذي تقول للشــيء كن فيكون.. بـل لا تحتـاج لأن تقـول لـه ذلـك.. فيكفي أن تتوجـه إرادتك النافذة، ومشيئتك الحاكمة، ليتحقق ما تريد، وفي أقل من لمح البصر.. فلا وجود للزمان معك، ولا وجود للمسـتحيل مع قدرتك وفضلك وعظمتك.

إلهي أنا أعلم أن التقتير الذي قد نراه في بعض شــؤون حياتنا، ليس إلا من مقتضيات منعك الـذي هـو عطـاء.. فـأنت تمنعنا ما يضرنا، وبذلك يتحول المنع إلى عطاء ينفعنا..

أنت تمنعنا ـ يـا رب ــ أن نلين للـدنيا أو نسـكن إليهـا أو نتثاقل إلى أهوائهـا.. ولـذلك تقـتر علينـا من الـرزق، أو تقـدر علينا من الحاجة ما يعيدنا إليك.. وأنت الغني الذي من وصـل إليه استغنى عن كل شيء.

إلهي.. أعـوذ بـك أن أنظـر إلى ذات عطائـك، فـأُحجب عنــك، وأصــبح عبــدا للعطــاء لا للمعطي، وأنــا لا أريــد إلا المعطي، فالعطاء ينفذ، والمعطي باق..

إلهي لقد سألك عبدك الصالح موسى خبزا يأكله، وبيتا يؤويه، وقال لك بكل تواضع بعد أن أجهده الجوع والتعب: { رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص: 24]، فأرسلت إليه بمجرد انتهاء قوله ذلك الطعام الطيب، والمسكن الآمن، والجوار الصالح، والأنيس الحنون.

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح سليمان أن تهبه ملكا.. فوهبته الملك على البشر والشياطين وجميع الأحياء.. ووهبته القدرة على فهم كلامها، والتعرف على مشاعرها، والتحكم فيها.. بل سخرت له فوق ذلك { الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ } [ص: 36 ـ 38]، ثم فوضته بأن يفعل في ملكه ما يشاء، وقلت له: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: 39]، بل وعدته فوق ذلك بالمزيد الذي لا يساوي معه ما أعطيته شيئا، فقلت: {وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} [ص: 40]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح أيوب أن تهبه الصحة والعافية.. فلم تكتف بذلك.. بل أضفت إليها ما ذكرته في كتابك، فقلت:{وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [ص: 43]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح زكريا الولد.. وبمجرد أن انتهى من طلبه سمع كلماتك الخالية من الحروف والأصوات تردد في آذان قلبه: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} [مريم: 7]

يا رب.. وقد سألك عبدك الصالح إبراهيم أن تهبه لسان صدق في العالمين، فأصبح مذكورا في كل الأزمنة، وكل الأمكنة، وكل الأديان.

يا رب.. ونحن عبيدك الضعفاء السائرون على خطى الأنبياء والأولياء.. فهب لنا من جميل عطائك ما وهبتهم، واكسنا بجميل فضلك ما كسوتهم.. وامنع عنا كل ما يؤذينا كما منعت عنهم كل ما يؤذيهم.

يا رب.. نسألك من كل خير سألوك منه.. ونعوذ بك من كل شر استعاذوا بك منه.. نسألك أن تعلمنا كما علمتهم، وأن تفهمنا كما فهمتهم.. ونسألك أن ترزقنا ذلك اليقين الذي رزقتهم، فقضوا حياتهم كلها في جوارك، متنعمين بصحبتك، متلهفين للقائك.

يا رب.. لقد ذكرت في كلماتك المقدسة أصناف عطائك، فقلت: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: 18، 19]

ثم أعلمتك بسننك في ذلك، فقلت: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} [الإسراء: 20]

ونحن نعوذ بك يا رب من أن نكون من ذلك الصنف الذي لم يرد إلا العاجلة، وضحى بحياته الأبدية من أجلها.. ذلك الذي وصفته في كتابك، فقلت: {مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ

رَبَّنَا آتِنَـا فِي الـدُّنْيَا وَمَـا لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } [البقـرة: 200]

بل نسألك أن نكون كذلك الـذي علم أن لـك الملـك في الدارين، وأن الذي يقصدك لا يرجع خائبا.. فلذلك طلب منــك الدنيا والآخرة، ذلـك الـذي وصـفته فقلت: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [البقرة: 201]

يـا رب فهب لنـا الـدارين، ولا تشـغلنا فيهمـا عنـك.. بـل اجعـل مـا تهبنـا من فضـلك، ومـا ترزقنـا من عطائـك معـارج نمتطيها لنرحل بها إليك..

يا رب نسـألك أن تجعـل نعمـك علينـا كمـا جعلتهـا على أنبيائك وأوليائك الذين لم تبطرهم النعم، ولم يسـتكبروا بهـا، ولم يفرحوا ذلك الفرح الكاذب، بل فرحوا بك، وبفضلك، كمـا قلت لهم، وكمـا علمتهم: {قُـلْ بِفَضْـلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِـذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 58]

يا رب.. وأسألك أن تحفظ لي ما أعطيتنيه بحسن ثنـائي عليك، وشكري لـك.. فقـد أخبرتنـا في كلماتـك المقدسـة أن الشكر صمام النعم وحافظها..

ونسـألك يـا رب أن تعلمنـا كيـف نثـني عليـك، وكيـف نشكرك ونمجـدك، وكيـف نسـتعمل مـا أنعمت بـه علينـا في سبيلك، وابتغاء مرضاتك.. إنك أنت أكرم الأكرمين.

الكبير المتعال

إلهي.. أيها الكبير المتعال.. يا صاحب الوجود الأزلي الأبدي الدائم.. يا من تنزهت عن كل نقص، وتقدست عن كل ضعف، وتعاليت عن كل ما لا يليق بجلالك وجمالك وكبريائك.

لقد رحت أبحث في كل شيء خلقته، فوجدته صغيرا بجنبك.. بل لا يساوي شيئا.. بل هو صفر محض.. أو وهم خالص.. فكل شيء إذا ما قورن بك، ووضع أمامك تحول إلى عدم ووهم وسراب.

وكيف لا يتحول إلى ذلك، وهو لا يملك إلا وجودك.. فلولا وجودك لم يكن شيئا مذكورا.. ولولا إمدادك له في كل نفس بالوجود لعفى أثره، وانطفى نوره، ولم يبق له حقيقة ولا اسم ولا رسم.

فوجود كل شيء ــ يا رب ــ من وجودك.. وكمال كل شيء ذرة من محيطات كمالك.. وجماله ذرة في بحر جمالك..

فهنيئا لمن عرف أنك أنت الأكبر.. وأن من انتسب إليك فقط هو الذي يحق له أن يفرح ويفخر.. لأنه ينتسب إلى المتعال الأكبر.. ذلك الذي لا يعرف وجوده العدم، ولا يعرف كماله النقص، ولا يعرف عطاؤه البخل، ولا يعرف جماله الدمامة.. فكما أنك يا رب الأكبر.. فكل صفاتك الأكبر..

فأنت ـ يا رب ـ الأعلم الذي لا يضاهيك أحد في علمك.. وكيف يضاهيك وكل علوم الخلائق ذرة من محيطات علومك،

وكلهـا منـك، وأنت الـذي ألهمتهم إياهـا، ولـولاك لكـانوا جهلا محضا..

لقـد ذكـرت ذلـك يـا رب في كلماتـك المقدسـة فقلت: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لَا تَعْلَمُـونَ شَـيْئًا وَجَعَـلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

فويـل لأولئـك الـذين حُجبـوا عنـك بتلـك الحـروف الـتي تعلموها في مدرستك، ولولا تعليمك لم يتعلموا، ولولا قدراتك التي وهبتهم ما استطاعوا أن يفهموا شيئا.. لكن فـرحهم بمـا حصـلوه من العلم، وتكـبرهم عليـك طـردهم من مدرسـتك، وحجبهم أن يتعلمــوا العلــوم الحقيقيــة منــك، فــاكتفوا من تعليمهم بظاهر الحياة الدنيا، وبالغفلة عنك، وقـد قلت تصـف علمهم: { يَعْلَمُونَ ظَـاهِرًا مِنَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِـرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7]

يا رب.. فأعوذ بك أن أزهو بما ألهمتـني من علومـك، أو أفرح بها دونك.. فاحتفـظ بي تلميـذا في مدرسـتك، وعلمـني علوم الظـاهر والبـاطن، حـتى أعـرف الحقـائق منـك، فـأنت المعلم الأكبر الذي من لم يتعلم في مدرسته ظل جاهلا، ولـو درس عند كل علماء الدنيا، وفي كل جامعاتها.

وكمـا أنـك الأعلم يـا رب.. فـأنت الأقـوى الـذي يضـعف أمامـه كـل شـيء.. فـأنت أقـوى من كـل أعـدائي وأعـداء المستضعفين، وأنت القـادر على أن تبيـد خضـراءهم بطرفـة عين.. لكنك تمهلهم، ولا تهملهم.

تمهلهم لعلهم يتوبوا ويتواضعوا ويرجعوا إليـك، ويعرفـوا أنك أنت الأكبر، وأنـك أنت الأقـوى.. وتمهلهم حـتى تمـيز بين

من يكبرونـــــك ومن يكـــــبرونهم.. ومن يعظمونـــــك ومن يعظمونهم..

فــاجعلني أراهم كمــا أرى الــذباب والبعــوض في جنب قوتك، واحفظ قلبي من أن يرتجف هيبة لهم، وكيف يرتجـف، وهـو مسـتند إلى ركنـك الشـديد الـذي لا يعجـزه شـيء في الأرض ولا في السماء.

إلهي.. وأنت الأرحم والأكـرم والألطـف.. أنت الـذي لـو اجتمـع حنـان كـل الأمهـات، ورحمـة كـل الآبـاء، ولطـف كـل اللطفاء لما عدل نقطة من بحر رحمتك وكرمك ولطفك.

إلهي.. وأنت الأقــدر الــذي لا يعجــزه شــيء.. ولــو أن قـدرات كـل الخلائـق اجتمعت لمـا عـدلت ذرة من قـدرتك.. وكيــف تعــدل ذلــك، وقــدرتهم من قــدرتك، ووجــودهم من وجودك.

إلهي.. وأنت الأجمل الذي لو اجتمع كل جمال الكون لما عدل ذرة من بحر جمالك.. وكيف يكون له ذلك، وجمالــه من جمالك، بل إن كل شـيء مـرآة لبعض بعض جمالـك الـذي لا حدود له.

إلهي.. وأنت المبــدع.. ولــو اجتمــع كــل فنــاني الــدنيا والآخرة لما بلغوا ذرة من بحر ذوقـك الرفيـع، وفنـك البـديع، وتصميمك الرائع.. وكيف يقارنون بك، وإبداعهم من إبــداعك، وفنهم ذرة في بحر فنك.. بل فنهم منك وبك.

إلهي.. فهب لي من جميــل فضــلك مــا يرفعــني عن السفاسف، حتى ترتفـع همـتي إليـك.. فلا يليـق بمن انتسـب

للأكـبر أن يكـون أصـغر.. ولا يليـق لمن حضـي بالشـرب من كأس جمالك أن يكون صاحب همة دنية، أو نفس غير أبية.

إلهي.. أعـوذ بـك أن تحجبـني بأولئـك الصـغار الـذين لا يساوون أمام جلالـك شـيئا.. فـأنزل بـذلك عن الكمـال الـذي هيأته لي.. والكبر الذي أتحته لي.. ذلك الكبر الــذي لم يُنغص بالكبرياء، ولم يُعكر بالـدناءة، وإنمـا زين بالتواضـع والعبوديـة والذلة.

إلهي.. وأسألك وأنت الكبير المتعال، أن تنزهني من كل قصور يحول بيني وبينك، ومن كل كمال وهمي أفـرح بــه، ثم أحزن لإبعاده لي عنك.

يـا رب.. فاجعـل همـتي كبـيرة عاليـة حـتى لا تتطلـع إلا إليك.. فأنت أرحم الراحمين، وأنت الكبير المتعال.

الصمد الودود

إلهي.. أيها الصمد الودود.. الذي يفيض عطاياه على كل الوجود.. بالحدود وفوق الحدود..

أنت موئل الطالبين، ومقصد المستغيثين، وملجأ المتحيرين، ومنبع العطاشى الظامئين..

أنت يا رب من ترتفع له الأيادي بالسؤال، وتضج له الأصوات بالدعاء، فيسمعها جميعا، ويلبيها جميعا..

أنت يا رب صاحب الجود العظيم.. والعطاء الكريم.. والقدرة المطلقة.. والإرادة النافذة.. والعلم الواسع.. والرحمة التي وسعت كل شيء.. ولذلك لا تضيق بالسائلين، بل تفرح بهم، بل ترسل لهم من أنواع الرسل ما يستحثهم إليك، ويدعوهم لدعائك.

يا رب.. ماذا عساي أقول لك، وأنت ترى فقري وفاقتي وحاجتي التي لا يلبيها إلا غناك المطلق.. فأغدق علي من كرمك ما يسد حاجاتي، ويرفع فاقاتي، ويجعلني عبدا لك وحدك.

يا رب.. وأنت ترى جسدي الضعيف المتهالك.. وأنت الطبيب الشافي الذي يملك كل أنواع الدواء، ويشفي جميع أنواع العلل.. فاشفني وعافني وقوني.. حتى أتمكن من أداء ما كلفتني به من وظائف، وأنعم بالحياة الطيبة التي وعدت بها المؤمنين بك.

يا رب.. وأنت ترى جهلي، فعلمني.. وأنت ترى كسلني،

فنشطني.. وأنت ترى همتي الدنية فارفعهـا.. وارفعـني معهـا إليـك حـتى تكـون مقصـودي الأعظم الـذي يهفـو لـه قلـبي، وتشتاق له نفسي، وتسكن إليه روحي.

يا رب.. لقد دعوتنا في كلماتـك المقدسـة لأن نكـثر من التضرع إليك، والاستغاثة بك، ووعـدتنا بالإجابـة، فقلت: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ} [البقرة: 186]، وها نحن ندعوك يا رب كما أمرتنا، فاسـتجب لنا كما وعدتنا.

يا رب.. لقد ذكرت في كلماتـك المقدسـة أولئـك الـذين تكبروا أن يرفعوا أيديهم إليك مع أن عنـدك الحـل لجميـع مـا نزل بهم من أنواع البلاء، فقلت: { وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَـاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعـام: 42،ـ 43]، ونحن نعـوذ بك يا رب أن نكون مثلهم، فتقسو قلوبنا بتركنـا لـك، ورغبتنـا عنك.

يا رب.. فاجعلنا ندعوك في كل أحوالنا، حــتى في طلب ملح بيتنا، فأنت رب كل شيء، ولولاك لم يصل شيء لشيء.

يا رب.. أيها الصمد الأعظم نعـوذ بـك أن نكـون كأولئـك الذين قصرت أنظارهم، وعميت بصائرهم، فانشـغلوا بالـدعاء لدنياهم، وأهملوا آخرتهم.. أولئك الذين ذكرتهم فقلت: { مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الـدُّنْيَا وَمَـا لَـهُ فِي الْآخِـرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} [البقرة: 200]، وذكرت غيرهم من الصـالحين فقلت: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَـا آتِنَـا فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الْآخِـرَةِ

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [البقرة: 201، 202]

فنسألك يا رب.. يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أن تنزلنا في منازل فضلك وجودك مع أنبيائك وأوليائك حتى لا نرى من أهوال الآخرة ما يراه الغافلون الجاحدون.

يا رب.. وإن توفيتنا في الآجال التي حددتها لنا، وبعد أدائنا لكل ما كلفتنا به من تكاليف، فانقلنا بجودك العظيم من الدنيا مباشرة إلى فيض فضلك وجودك وجنانك الواسعة التي نقلت إليها أولياءك؛ فلم يذوقوا من الآلام، ولم يروا من الهوان ما رآه العصاة الغافلون المستكبرون.

يا رب.. أنت الواسع الذي لا يضيق بفضلك شيء.. وأنت الكريم الذي يتسع جودك لكل السائلين.. وأنا عبدك الذي يبسط إليك يديه بكل أنواع السؤال من غير أن يعتريه ذلك الحياء أو تلك الهيبة التي تصيبه عند سؤال غيرك..

وكيف تصيبني الهيبة أو الحياء، وأنا أقصدك يا رب.. وأنت الجواد الأعظم، والصمد المطلق الذي لا يرد من تضرع إليه، ولا يصد من استغاث به.

يا رب.. وكما حركت قلبي ولساني لسؤالك.. فعلمني الأدب معك حتى لا يجرني البسط والأنس الذي وفرته لي إلى عدم توقيرك وتبجيلك وتقديسك.

فأنت تعلم يا رب.. أن سؤالي لك ولو في أبسط الشؤون نابع من تعظيمي لحضرتك، وتبجيلي لذاتك، واعتقادي في أسمائك الحسنى، وصفاتك العليا.. فأنا أعلم أن كل شيء منك وبك ولك.. ولذلك أرى المغبون من يمد

يده إلى غيرك، وهل هناك أكرم منك حتى تمد الأيادي له؟

يا رب.. أيها الصمد الودود الذي يعطينا من فضله بمحبة ورحمة وحنان، فلذلك لا يضيق بمن أعطاهم، بل يضيف إلى عطائهم الحسي عطاءه المعنوي، وينقلهم من أنفسهم إليه، ومن الحاجات التي طلبوها منه إلى أعظم نعمة في الوجود، وهي نعمة القرب منه والأنس به والمحبة له.

يا رب.. فنسألك أن تكون مقصودنا ومحبوبنا وأنيسنا الأعظم حتى لا ننشغل بما أعطيتنا عنك، فتكون عطاياك حجابا لنا دونك.

يا رب.. نسألك أن تكون أنت الصمد الذي نقصده.. وأنت الحاجة التي نطلبها.. فمن وجدك وجد كل شيء، ومن فقدك فقد كل شيء.. وما الذي وجد من فقدك.. وما الذي فقد من وجدك؟

الأول والآخر

إلهي.. أيها الأول والآخر..

أنت يا رب.. من يجثو الزمان بين يديك كما يجثو المكان وكل شيء عبدا خاضعا ذليلا، لا يملك من أمره شيئا.

يا من سبق الكل، ولولاه لم يكن شيء.. ومن لم يعرفه لم يعرف أي شيء.. فكل شيء ـ يا رب ـ مرتبـط بـك ابتـداء وانتهاء.. أولا وآخـرا.. أنت الـذي تمـده بـالوجود.. ولـولاك لم يكن موجـودا.. وأنت الـذي تمـده بالبقـاء.. ولـولاك لالتهمـه العـدم، واحتوتـه الظلمـات.. فعميت تلـك العين الـتي تـرى الأشياء، ثم لا تراك معها وقبلها وبعدها.

أنت يا رب ـ بأوليتك وآخريتـك ـــ سـر كـل الأشـياء.. فلا يمكن معرفتها من دونك.. وهـل يمكن أن نعـرف طريقـا من غير أن نعرف بدايته أو نهايته؟

أنت يا رب سر تلك اللمسات الجمالية المودعة في كـل جميل.. فأنت الذي هيأت لها ذلك الجمال.. وأنت الذي وفرته لها.. وأنت الذي مسحتها به.. بل إن ذلـك الجمـال يـا رب مـا هو إلا قطرة من بحار جمالك التي تبدت للكائنات لـيروك من خلال مـرائي الأشـياء.. فـأنت يـا رب أول الجمـال.. وملـك الجمـال.. وآخـر الجمـال.. ولـولاك لم نعـرف الجمـال.. ولم نسبح بحمده.

يـا رب.. وأنت سـر ذلـك اللطـف المـودع في الأكـوان.. فأنت أول اللطف وآخره.. وبـك اسـتقر.. ومن دونـك لم يكن لطف.. ومن دونك كان كل شيء غليظا قاسيا متحجرا ممتلئا

بالكثافة والعتامة والظلمات.

يا رب.. وأنت سر كل الحقائق، بك تبـدأ، وإليـك تنتهي.. ومن زعم أنــه عــرف الحقــائق من دونــك، فهــو أجهــل من الجهـل.. لأنـه لا حقيقـة لشـيء من دونـك.. فكـل الحسـيات والمجردات.. وكل الملـك والملكـوت.. ملـك لـك.. أنت أولـه وآخره.. ولولاك لم يكن شيئا مذكورا.

فكيف يجري عليـك الزمـان يـا رب.. وأنت الـذي خلقت الزمان.. وما الزمان إلا عبد من عبيـدك سـلطته على عبـادك ليعرفوك، ويعظموك، وينزهوك، ويعرفوا الفرق بينهم وبينك.. فلا يمكن أن ينزهــك أو يقدســك من يضــعك في مقــاييس العقول، وأوهام الخيال.

يــا رب.. جهــل من حــدك بحــدود الزمــان والمكــان والأوهـام.. أو علم أن هنـاك من يشـبهك.. أو أنـك يمكن أن تشبه أحدا.. فأنت العظيم الأعظم.. القدوس الأكمـل.. الـذي لا حدود لقداسته ولا لكماله.

يا رب.. وكما تنزهت عن الزمان.. فنزهنا عنـه.. واجعـل بصائرنا تعيش في بحار الأزلية، غير مقيدة بالأوقات.. لتسـجد قلوبنا لك سجدة أبدية لا تقوم بعدها أبدا.

يـا رب.. أنت الـذي نـزهت أنبيـاءك وأوليـاءك عن تلـك القيود.. فهامت أرواحهم في بحار أزليتك وأبـديتك، وتخلصـوا من كل تلك القيـود الـتي تحـول بينهم وبين الغـرق في بحـار الجمال المطلق، والكمال المطلق.

يا رب.. فكمـا نـزهتهم فنزهنـا.. وكمـا قدسـت أرواحهم فقدس أرواحنا.. فأنت تعلم أنه وإن قصرت خطانـا عن بلـوغ

خطاهم إلا أن قلوبنـا ممتلئـة بمحبتهم وتقديسـهم وتعظيمهم كما أمرتنا..

يا رب.. وكما خلقت الزمان لنـا قيـودا.. فقـد خلقتـه لنـا نعمة.. وقد قلت في كلماتك المقدسة تشير إلى ذلك: {وَهُـوَ الَّذِي جَعَـلَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَـةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَـذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: 62]

فاجعلنا يا رب.. نبتهل كل لحظة من الزمان الذي وفرته لنا، حتى نغنم فيه بغنائم الأبد.. تلك الغنائم الـتي لا يمكن لأي عدو أن يسلبها منا.

يا رب.. أنت الذي بيدك ناصية الزمان تبارك فيمـا تشـاء منه.. وقد جعلت ليلة القدر خيرا من ألـف شـهر.. فاجعـل يـا رب كل أيامنا وليالينا ليـالي قـدر مباركـة نسـعد فيهـا بغنـائم الأزل والأبد.. لنرحل بهـا إليـك.. ونمتطيهـا في سـفرنا الأزلي إلى رحاب جمالك الذي لا حدود له.

يا رب.. وبارك لنا في أوقاتنا حتى تكون كلها لك.. وحتى لا تصيبنا تلك الحسرة التي تصيب المسوفين وأصحاب الأمل الطويل عندما يعاينون جميل فضلك، ويعاينون معه تقصيرهم وتسويفهم وتفريطهم.. إنك أنت أرحم الراحمين.

الظاهر والباطن

إلهي.. أيها الظاهر والباطن.. يا من ظهر في كل شيء، ولكل شـيء، ولم يحجبـه أي شـيء.. وبطن في ظهـوره عن كل شيء، فلا تدركه الأبصار، ولا الأوهام، ولا العقول.. فهو لا يزال في غيبه المطلق محجوبا عن الإدراك والإحاطـة، ولـولا أسماؤه الحسنى ما عرفناه، ولا استدللنا عليه.

يـا رب.. لقـد تـأملت في المعـاني الـتي يحملهـا هـذا الاسمان المقدسان من أسمائك، فامتلأت بمشاعر، جميلـة لا يمكن وصفها..

فـأنت يـا رب أقمت لنـا بظهـورك بأسـمائك الحسـنى، وتجلياتـك العظمى كـل الحجج الـتي تـدل عليـك، والـتي لا يحجب عنها إلا الغافلون.. ففي كل قطرة مطر، وموجة بحر، ونسمة هواء رسـالة من الرسـائل الدالـة عليـك، وحـرف من الحروف التي تصفك، وتصف عظمتك، وقد قلت مشــيرا إلى ذلك في كلماتك المقدسة: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَـوْتَى وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم: 50]

وقلت مشيرا إلى إمساكك للسموات والأرض أن تـزولا: { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَـزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَـا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْـدِهِ إِنَّهُ كَـانَ حَلِيمًـا غَفُـورًا} [فـاطر: 41]

وقلت مشيرا إلى آياتك الكثـيرة الدالـة عليـك، والـتي لا نهايـة لهـا، ولا لـدلالاتها: {إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة: 164]

وأمرت أولئك المحجوبين عنك، وعن ظهورك، أن ينظروا إلى الأشياء بعين البصيرة، لا بعين البصر وحده، للسير منها إليك، والاستدلال بها عليك، فقلت: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: 17 - 20]

وهكذا يا رب.. كانت كل خلية من خلايا الحياة.. وكل ذرة من ذرات الكون دليلا يدل عليك، ومعرّفا يعرف بك وبأسمائك الحسنى، وصفاتك العليا.. حتى صار الكون كله مرآة لجمالك، وظلا لعظمتك.. وحتى صرت في عيون العارفين معروفا يرونك في الأشياء قبلها وبعدها ومعها.. بل إنهم من شدة انبهارهم بعظمتك حجبوا عن الأشياء بك.. وفنوا عنها بالاستغراق في جمالك.. فصاروا لا يرونها، بل يرونك، وهل يمكن أن يُرى معك غيرك؟

لكنك مع كل ذلك الظهور لا تزال باطنا محتجبا في سرادقات غيبك.. فأنى للعقول أن تحيط بك، أو تدركك، وأنت الغيب المطلق الذي لا حدود لإطلاقه.. وهل يمكن لمن رأى قطرة من ماء البحر أن يزعم أنه رأى البحر.. أنى ذلك.. وأنت في غيبك المطلق بحار لا نهاية لحدودها، ولا منتهى لعظمتها.

فلذلك كذب من زعم أنـه يعرفـك.. كمـا كـذب من زعم أنه يجهلك..

يـا رب.. لقـد تـوهم بعض الغـافلين أن ذلـك تنـاقض لم تستوعبه عقولهم.. ولـو أنهم رجعـوا لمـا يعرفونـه من أشـياء لأخرجوا عقولهم من تناقضها..

فهل يمكن لمن قضى عمره كله في الحساب والإحصاء أن يتـوهم أنـه قـد أحـاط بعـالم الأعـداد، أو أنـه وصـل إلى منتهاها، أو أنه أدرك نصفها أو ربعها أو عشرها..

نعم يمكنه أن يـذكر أنـه عـرف عـالم الأعـداد.. ولكن لا يمكنه أبدا أن يذكر أنه أحاط بمعرفتها.. فهي مطلقة لا نهايـة لها.. ويمكن لأي صبي صغير أن يضيف لما جمعه منهـا طيلـة حياته أضعافا مضاعفة.

لقد أشرت يا رب في كلماتك المقدسة إلى هذا، فقلت: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34]

فإن كنا يا رب عاجزين عن عد الأعداد، أو إحصاء النعم، وهي خلق من خلقك، فكيف يمكننا أن نعد أسماءك، أو نحيط علما بك..

ولــذلك يــا رب كنت ظــاهرا في بطونــك.. وباطنــا في ظهورك..

فأنت بكرمك أبرزت لنا من جميل أسمائك ما نستدل به عليك، بـل مـا نحجب بـه عن غـيرك.. وأبـرزت لنـا في نفس الوقت ما يدل على غيبـك المطلـق، وعـدم إمكانيـة الإحاطـة بك، وكيف يحاط بما لا نهاية لكماله وجماله وجلاله وعظمته.

فأسألك يا رب.. أيها الظاهر الباطن.. أن ترزقنا من جميل ألطافك ما تزين به ظواهرنا وبواطننا.. حتى يكونا جميعا مرآة لتجلي جمال رحمتك ولطفك وكرمك..

ونستعيذ بك يا رب من كل الذنوب الظاهرة والباطنة التي تحجبنا عنك.. فجمالك العظيم ممتلئ بالطهارة، لا يراه من دنس ظاهره أو باطنه.

وأسألك يا رب أن تجعل ما برز منا في الظاهر من جمال لا يساوي شيئا أمام ما خفي في الباطن منه، حتى يكون الباطن ممدا للظاهر بالمدد الذي لا ينقطع.

وأعوذ بك يا رب أن أكون كأولئك المنافقين الذين اجتهدوا في تزيين ظواهرهم، فحجبوا بها عن بواطنهم، وسقطوا في الدرك الأسفل من النار لكذبهم على أنفسهم، وخداعهم لخلقك.

يا رب.. فطهر باطني وظاهري.. واملأهما بأسرار الجمال والكمال، وغذهما بتلك القيم النبيلة التي أنزلتها في كلماتك المقدسة.. حتى تكون حركاتي وسكناتي موافقة لحركات وسكنات أنبيائك وأوليائك الذين أمرتنا بالاقتداء بهم، والسير على طريقهم.

يا رب.. ونسألك أن تهبنا من رزق الظاهر والباطن ما يملؤنا بالسعادة التي لا تكدر.. فقد رأيت من الناس من أغار باطنه على ظاهره، فامتلأ بالشقاء، ولم يستطع كل ذلك النعيم الذي أنعمت به على ظاهره أن يخلصه من الكآبة والإحباط والتشاؤم الذي امتلأ به باطنه.

يا رب.. ونسألك أن تكشف لنا من لطيف فضلك ما

نعرف به نعمك ظاهرها وباطنهـا.. فقـد رأيت من الخلـق من حُجب عن نعمك الباطنة التي وهبتها له، بالظاهر الذي يعيش فيه، فتوهم أنك مقصر في الإحسان إليه، مـع أنـه يعيش في بحار فضلك التي لم يشاهدها بسبب عشاه وعمـاه عن رؤيـة ما أودعت في باطنه من النعم التي لا حدود لها.

رب العالمين

إلهي.. يـا من وصـفت نفسـك في كلماتـك المقدسـة، فقلت: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ} [الفاتحـة: 2]، وقلت: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف: 54]

لقد رحت أنظر في كل شيء، وأقـرؤه بمنظـار كلماتـك المقدسـة، فـامتلأت بمعـارف عظيمـة جعلتـني أرى نفسـي والكون وكل العالمين بصورة أخرى غـير تلـك الصـورة الـتي رسمها لي كل أولئك المفكرين والفلاسفة الذين انطلقوا من وحي عقـولهم، المختلـط بـأهوائهم ودنسـهم، لا من وحيـك المقدس الممتلئ بالطهارة.

لقـد كنت أرى الأشـياء ــ حين كنت تابعـا لهم ــ مفرقـة مشتتة.. لكل جهة منها كونها الخاص بها.. والذي لا علاقـة لـه بسائر الأكوان.. لكني بعد أن عرفت أنك رب العالمين صرت أرى الكون كلـه واحـدا متوجهـا إليـك.. قـد تختلـف أسـماؤه، وأصناف أفراده، وأنواع عوالمه، لكنه مثل تلك الروافـد الـتي تتجمع من سحابة واحدة، لتصب في بحر واحد.

لقـد كنت أرى الكـون تائهـا في غابـة الزمـان والمكـان المحدودين، وأنه سيأتي اليـوم الـذي تلتهم فيـه سـباع الفنـاء كل ذلك، ليتحول كل شيء إلى ظلام مطبـق.. لكـني بعـد أن عرفت أنـك رب العـالمين علمت أنـك مـا خلقت هـذا الكـون لتبيده وتزيله وتفنيه، وإنما خلقته لترفعه وتربيـه وتوجهـه إلى الكمال الممكن له..

لقــد علمت من قــراءتي لكلماتــك المقدســة الحاويــة

لحقائق الوجود أنك ـ يا رب ـ مـا خلقت الكـون لـتزج بـه في الظلمـات، وإنمـا خلقتـه لتخرجـه من الظلمـات.. ابتـداء من ظلمات العدم، وانتهاء بظلمات الضلالة..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {هُـوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]

ولـذلك أرسـلت رسـلك، وأنـزلت كلماتـك عليهم لتـؤدي دورهـا في تربيـة خلقـك، وتعـريفهم بـك، حـتى يخرجـوا من ظلمات الأوهام إلى نور الحقائق..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {هُـوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحديد: 9]

يا رب.. ولم تكتف ربانيتك لخلقك بذلك.. بل جعلت لهم من السمع والأبصـار والعقـول وكـل أدوات الإدراك مـا يمكن أن يكـون نبراسـا يـدلهم على الحقـائق، ويعينهم على السـير في سبيلها..

لقـد قلت تشـير إلى ذلـك: {وَاللَّهُ أَخْـرَجَكُمْ مِنْ بُطُـونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

فلذلك يسـتحيل على من يُعمـل مداركـه، أو يخلي بينهـا وبين أداء وظائفهـا، أن يجهلـك، أو يجهـل القيم الـتي أمـرت عبادك بأن يختاروها، ليترقوا من خلال اختيارهم لها.

ولم تكتف ربانيتك بذلك.. بـل إنـك يـا رب.. وضـعت في

فِطر خلقك ما يـدلهم على الحـق، ويجعلهم يشـعرون بـه من غير حاجة لبراهين أو أدلـة.. وكيـف يحتـاجون إلى ذلـك، وهم قد سمعوا نداءك لهم، وأنت تعرفهم بنفسك..

لقـد قلت في كلماتـك المقدسـة تشـير إلى ذلـك: {وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: 172]

ولم تكتف ربانيتك بذلك.. بل إنك نصبت الدلائل في كـل شـيء.. ووضـعت الأعلام الهاديـة إليـك وإلى حقـائق الوجـود وقيمه النبيلة في كل محل.. حتى يخرج الخلـق بملء إرادتهم من ظلمات أهوائهم إلى أنوارك.. وحـتى يقومـوا هم بتصـفيد شياطينهم، بعد أن يختاروك أنت.. ويختاروا معك عالم الأنوار التي لا تنطفئ أبدا.

يـا رب.. وقـد كـان من مقتضـيات ربوبيتـك لعبـادك أن جعلت لهم دار للجـزاء.. لينـال كـل واحـد منهم جـزاءه الـذي اختـاره لنفسـه في دار التكليـف.. وكنت رحيمـا بهم، عـادلا معهم، فلم تـنزل في دار كرامتـك إلا من كـان أهلا لهـا.. ولم تنزل في دار تأديبك إلا من رفض الالتزام بقيمـك الـتي بـنيت عليها الكون، وأسست عليها الحياة.

يا رب.. وأنت في كل ذلك لا تزال رب العالمين.. تـرقي أهل الجنة، وتربيهم، لتخرج منهم كل ما يصـرفهم عنـك، ولـو كـان من نعيم الجنـة.. وتـربي أهـل الجحيم، وتـريهم فسـاد اختياراتهم، حتى يكون ذلك سببا في خـروجهم من الظلمـات إلى النور.. فإن خرجوا منها استحقوا رحمتـك، كمـا اسـتحقها المؤمنون أول مرة.

ولـذلك كـانت الحيـاة كلهـا.. أولاهـا وأخراهـا.. مدرسـة تربوية تشرف عليها.. ليترقى الخلائق إلى العـوالم المقدسـة الـتي هيأتهـا لهم.. ليسـعدوا باللقـاء الأجمـل.. والمعرفـة الأعظم.. والمشاعر التي لا يمكن وصفها.

يا رب.. فاختر لنـا من الطـرق أقصـرها.. ومن المعـارج أقربها.. حتى نصل إليك من غير المـرور بتلـك المعانـاة الـتي يمـر بهـا الجاحـدون المقصـرون الـذين استسـلموا لعقـولهم وأهـوائهم، ولم يستسـلموا لـك، ولا لرسـلك، ولا لكلماتـك المقدسة.

يـا رب.. وطهـرني من رؤيـة نفسـي، فـأنت تعلم أنهـا حجابي الأعظم الذي يحول بيـني وبينـك.. فـاجعلني أقطعهـا، لأصل إليـك من غـير معانـاة.. ولتصـبح نفسـي تلـك الراضـية المرضية.. المسالمة المطمئنة.. التي لا تختـار مـع اختيـارك، ولا ترضى بغير ما يرضيك.

يا رب.. اجعل نفسي كنفس إبراهيم الذي سلم لوحيك.. وكنفس إسماعيل الذي سلم رقبته من أجلك..

يـا رب.. واجعلـني كـذلك التلميـذ المطـواع لأسـتاذه، لا يجادلـه، ولا يماريـه، ولا يرتـاب في توجيهـه وتعليمـه.. حـتى أكـون من المتخـرجين المتفـوقين في مدرسـتك.. والـذين لا ينالون جوائز فضلك فقط.. وإنما ينالون معها جوائز رضـوانك وتقريبك ومحبتك، وهي أغلى الجوائز وأسناها وأرفعها.

يا رب العالمين.. فاهدنا إليك، ودلنـا عليـك، ويسـر على نفسـي التخلي عن أهوائهـا في سـبيلك، حـتى تصـير حيـاتي ومماتي كلها لك.. وحتى أترقى في مدارج الكمال التي هيأت

لها أنبياءك وأولياءك والصالحين من عبـادك.. فـأنعمت عليهم بكـل ألـوان فضـلك.. فـألحقني بهم، واجعلـني معهم، وربـني ورقني في مدرستهم، حتى أحظى بقبولك ولقائك وقربك.

السميع البصير

إلهي.. أيها السميع البصير.. المدرك لكل المدركات.. ما كثف منها، وما لطف.. وما قـرب منهـا، ومـا بعـد.. ومـا انفتح منهـا ومـا انغلـق.. فلا يغيب عنـك شـيء في الأرض ولا في السماء.. ولا في الملك، ولا في الملكوت.. ولا في الغيب، ولا في الشهادة.. بل كل شيء عندك شهادة.. وكـل غيب عنـدك حضور.

إلهي.. إنك ما ذكرت لنـا في كلماتـك المقدسـة السـمع والبصر لتحصـر قـدراتك فيهمـا، فـأنت أعظم من أن تنحصـر مداركك فيما تنحصر فيه مدارك خلقـك.. فـأنت الـذي تـدرك كل شيء، ومن كل الوجوه، وبكل المعاني.

وأنت الذي لا تحتاج للأعضاء الـتي يحتاجهـا خلقـك حـتى يتحقـق لهم الإدراك، فإدراكـك بلا آلـة.. وكيـف تحتـاج للآلـة، وأنت الذي خلقتها، وخلقت كل شيء؟.. وكيـف تحتـاج إليهـا، وأنت الغـني بـذاتك عن غـيرك؟.. وكيـف تحتـاج إليهـا، وأنت القدوس الذي تقدس عن كل الوسائط؟

وأنت يا رب.. تدرك كل شيء كما هـو على حقيقتـه.. لا كما تفعل بنا مـداركنا البسـيطة الـتي تتـأثر بضـعفنا وعجزنـا، فترى الأشياء بحسبها لا بحسب حقيقتها.

فلك الكمال يـا رب في سـمعك وبصـرك، ومـا لا نعلمـه من صفات إدراكك.. ولك القدوسية والتنزيه والتسـبيح فيهـا.. فأنت الأكـبر الأعظم الـذي تـنزه عن كـل نقص، وتحلى بكـل كمال.

يـا رب.. فـانظر إلينـا بعين لطفـك.. واسـتجب لـدعواتنا بسمع كرمك.. حـتى لا نفتقـر إلى غـيرك.. وكيـف نفتقـر إلى غيرك، وأنت ترى فقرنا، وتسمع تضرعنا.

يا رب.. واجعلنا كأوليائك الذين شغلوا بنظرك إليهم عن نظـر الخلـق.. فـامتلأوا فرحـا وسـعادة ليقينهم برؤيتـك لهم، وعلمهم بحضورك الدائم معهم.

يـــا رب.. واجعلنـــا من المخلَصـــين الصـــادقين الـــذين يشعرون برؤيتك لهم.. حتى لا نمزج مع رؤيتـك رؤيـة غـيرك، فنقع في الضلالة والشرك.. وهل يمكن لمن يعلم برؤيـة ربـه له أن يبحث عن رؤية غيره.

يا رب.. واجعلنا من المسـتحين من رؤيتـك لنـا، فنتـأدب أمامك، ولا نبيح لأنفسـنا أن تـترك الأدب وهي في حضـرتك.. وتحت سمعك وبصرك.. وهما لا يغيبان عنا في كل الأحوال.

يـــا رب.. فطهرنـــا لنحظى برؤيـــة الرضـــا، ونســـعد بمشـاهدتك لنـا، ونحن نتقلب في ريـاض طاعتـك، متنعمين برؤيتك لنا، ونحن نجثـو بين يـديك، ننهـل من كرمـك وفضـلك وعبوديتك.

يـا رب.. لقـد قلت في كلمـات المقدسـة تخبرنـا عنـك: {وَقُــلِ اعْمَلُــوا فَسَــيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُــولُهُ وَالْمُؤْمِنُــونَ وَسَــتُرَدُّونَ إِلَى عَــالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّــهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَــا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [التوبة: 105]، فنسألك يا رب أن توفقنا لأن نكون في أحسن الأحوال حـتى لا نقـع في الفضـيحة أمامـك وأمـام أنبيائك وأوليائك.. فلا معصوم إلا من عصــمته.. ولا مخلَص إلا من خلصته.

يـا رب.. لقـد ذكـرت في كلماتـك المقدسـة أنـك ذرأت { لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُـوبٌ لَا يَفْقَهُـونَ بِهَـا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِـــرُونَ بِهَـــا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـــمَعُونَ بِهَـــا } [الأعراف: 179]

فنعوذ بك من أن يصيب العته قلوبنا، أو العمى أبصــارنا، أو الصمم آذاننـا، فلا نـدرك الحقـائق الـتي بثثتهـا في كونـك، ونكون حينها { كَالْأَنْعَـامِ بَـلْ هُمْ أَضَـلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَـافِلُونَ } [الأعراف: 179]

يا رب.. فاملأ أبصارنا بنور البصيرة حـتى تطغى بصـائرنا على أبصارنا، فنرى الملكوت في الملك.. ونـرى البـاطن في الظاهر.. ونرى اللطافة في الكثافة.. ونـراك في كـل شـيء، فلا تغيب عنا في أي شيء.

يـا رب.. واجعـل سـمعنا لـك.. حـتى لا نسـمع شـيئا إلا لنهتدي به إليك، ويكون حادينا إلى روضات أنسك.

يـا رب.. وأسـمعنا مـا أسـمعته أهلـك وأوليـاءك الـذين شغفوا بذلك النداء الذي لا يزال يرن في آذان قلوبهم عنــدما قلت مخاطبا لخلقك: { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعـراف: 172]

يا رب.. واجعلنا نهتز طربا لسماع ذلـك النـداء المقـدس الممتلئ بكل أنواع الجمـال.. حـتى نعيش في عـالم الطـرب والسرور الذي لا يغني عنه كل طرب الدنيا وسرورها.

يا رب.. واجعل كل شيء حادينا إليك.. حتى نسـير إليـك بأبصارنا وأسـماعنا وكـل مـداركنا.. لنشـكرك بهـا.. فلا شـكر للنعمة أعظم من استعمالها للسير إليك.

يـا رب.. ونعـوذ بـك أن تحجبنـا بأبصـارنا وأسـماعنا.. فنلتفت لغيرك، ونقع في تلك الهوة السحيقة الـتي وقـع فيهـا من عبد هواه.. وراح يسمع لغـيرك، ويكتفي بـالنظر لسـواك، فصار ممن { ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: 104]

يـا رب.. فطهـر أسـماعنا وأبصـارنا ومـداركنا، واجعلهـا سلما يصلنا بك، وحبلا ممدودا منا إليك.. أو منك إلينـا.. حـتى لا نكون ضحايا لأهوائنا، وفرائس لشهواتنا.

يا رب.. واحفظ سـمعنا وبصـرنا وقوتنـا أبـدا مـا أبقيتنـا، واجعلها الوارث منا.. حتى نلقاك بها كما وضـعتها فينـا.. فقـد أخبرتنا رسلك أنـك ستحاسـبنا عنهـا، وأن السـعيد من حافـظ عليها، وعلى فطرتها، ولم يدنسها بأنواع الرجس والأذى.

يـا رب.. وكمـا تقدسـت مـداركك عن الآلات.. فقـدس مداركنا حتى يحصل لنا ما حصل للعارفين بـك، أولئـك الـذين صارت قلوبهم كلها عيونا، كما عبر عنهم الشاعر بقوله:

قلوب العارفين لها عيون... ترى مالا يري للناظرين

و ألسنة بأسرار تناجي... تغيب عن الكرام الكاتبين

و أجنحة تطير بغير ريش... إلى ملكوت رب العالمينا

و ترتع في رياض القدس طرا... وتشرب من بحار العارفين

الآمر الناهي

إلهي.. أيها الآمر الناهي الذي كلم عباده من غير حروف ولا أصــوات.. ولا أدوات أو آلات.. ليبلغهم حقــائق الوجــود.. ويعرفهم بنفسه وبأنفسهم.. ويدلهم عليه وعليهم.. نصحا لهم وشفقة بهم، حتى يرتقوا من ذلك العالم البسيط الذي ولـدوا عليه إلى عوالم الكمال المعدة لهم.

يا رب.. قد تأملت في كلماتك المقدسة التي تأمرنا فيها وتنهانـا.. وتوصـينا فيهـا وتعظنـا.. فـرأيت من جميـل لطفـك، وحسن بيانك، وفضل رحمتك مـا زادني لـك تعظيمـا، وزادني على شريعتك حرصا.

فأنت لم تأمرنا إلا بما يصلحنا، ويرفعنا، ويقدس أرواحنـا لتصبح أهلا لمنازل السعادة التي وفرتها لنا.

وأنت لم تنهنا يـا رب لتحرمنـا من بعض المتـاع الزائـل، وإنما نهيتنا لتربينا وتؤدبنا وتصلح نفوسـنا، لتصـبح لائقـة بـدار الطيبين، تلك الدار التي لا يدخلها من في نفسه ذرة خبث.

يا رب.. لقد قـارنت بين كلماتـك المقدسـة الـتي تأمرنـا فيهـا وتنهانـا بكـل مـا قالتـه البشـرية فلاسـفتها وحكماؤهـا ومفكروهـا وسياسـيوها.. فوجـدت الكـل يـراعي في أوامـره ونواهيــه حاجــات دون حاجــات.. ومطــالب دون مطــالب.. فيصلح أشياء، ويفسد أخرى.. ورأيت أوامرك ونواهيك وحدها من يصلح كل شيء، ولكل شيء.. ولكـل الأزمـان والبيئـات.. ولكل الأحوال والأشخاص.

وكيـف لا تكـون كـذلك.. وأنت الـرب الخبـير بعبـاده ..

العليم بمـــا ينفعهم ومـــا يضـــرهم.. وقـــد قلت في كلماتـــك المقدســة تحــدثنا عنــك: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِيرُ} [الملك: 14]

يـا رب .. فأسـألك أن أقـف عنـد أوامـرك ونواهيـك.. لا أتجاوزهــا.. ولا أُعمـــل عقلي أو هـــواي معهـــا.. وهـــل يمكن للممتلئ جهلا وغفلة أن يعقب على الذي لا حـدود لعلمـه، ولا نهاية لخبرته؟

يـا رب .. وأسـألك أن أؤدي مـا أمرتـني بأدائـه.. وأنتهي عما نهيتني عنـه.. وأنـا في غايـة الرضـا والسـرور، لأني أنفـذ أوامـــرك أنت.. وهـــل يمكن لأحـــد أن يـــرغب عن أوامـــر محبوبه؟.. وهل يمكن لأحد أن يقترب مما يكره محبوبه؟

يا رب .. وأسألك أن أؤدي أوامرك بكـل كيـاني.. بقلـبي وجــوارحي.. حــتى لا أكــون من الــذين يعطونــك ظــاهرهم، ويعطوا لأهوائهم بواطنهم..

يـــا رب .. وأســـألك أن توفقـــني لـــتراني حيث أمـــرت.. وتفقدني حيث نهيت.

يا رب .. وأسألك أن تجعلـني من الـدعاة إلى شـريعتك، والحريصـين عليهـا.. وأعـوذ بـك من أن أكـون من المتهـربين منها، أو المنفرين من الخضوع لها.

يا رب.. وأعوذ بك أن أكون كأولئك الذين استحوذ عليهم الشـــيطان، وزين لهم أعمـــالهم، فراحـــوا يُعملـــون عقـــولهم المدنسة بدنس الأهواء، فيرفضون من شريعتك ما لا يتناسب مع أمزجتهم، ويقبلون منهـا مـا يتناسـب معهـا، أولئـك الـذين وصفتهم بقولك: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَـرْفٍ فَـإِنْ

أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الحج: 11]

وأعوذ بك يا رب من أن أكون من أولئك الـذين يقـدمون بين يـديك وبين يـدي رسـولك، أولئـك الـذين نهيتنـا أن نكـون مثلهم، فقلت: {يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: 1]

وأعوذ بك يا رب من أن أكون من أولئك الـذين يصـيبهم الحرج لأوامرك أو أوامـر رسـولك، فيتسـللون هـاربين منهـا، متلاعبين بها.. أولئـك الـذين وصـفتهم فقلت: { قَـدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]

وأعوذ بـك يـا رب أن أجعـل لنفسـي الحـق في الخـيرة أمام أوامرك ونواهيك.. وكيـف أفعـل ذلـك، وقـد حـذرتنا في كلماتك المقدسة من أن نشرك بك نفوسنا وأهواءنـا، فقلت: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: 36]

يا رب .. واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك.. حـتى أهتدي إلى أوامرك ونواهيـك.. كمـا هي .. وكمـا أنزلتهـا على رسلك.. وقبل أن تغير عليها جحافل المبدلين والمغيرين..

وإن وقـع يـا رب أي خطـأ مـني في تنفيـذ أوامـرك أو الانتهاء عن نواهيك، فـاغفر لي تقصـيري وتفـريطي، واهـدني إلى التقـوى، حـتى لا أحـوم حـول حـدودك، أو أتجـاوز قـدري بتجاوزها.

يا رب.. واجعلني أنفذ أوامرك كما ينفذها المحبون لك.. لا كما ينفذها الخائفون أو الطـامعون.. فـإني وإن طمعت في فضلك، فهـو أعظم من أن يكـون سـببه أنـا أو أعمـالي.. بـل سببه أنت وكرمك.

فأنى لأعمالي، ولو كثرت أن تستجلب لي فضـلك.. وأنـا لم أعملهـا إلا بفضـلك.. ولـولا توفيقـك وهـدايتك لمـا عملت شيئا.

يــا رب.. فاجعــل أوامــرك ونواهيــك لي أداة لســلوك سراطك المستقيم خلف أنبيائك وأوليائـك الـذين اصـطفيتهم بكلماتـك المقدسـة، وجعلتهم منـارات لهـدايتك، وحجبت كـل من تمرد عليهم، أو أراد أن يصل من غير أن يسلك سبيلهم.

المحيي المميت

إلهي.. أيها المحيي المميت..

لقد رحت أتأمل في معنى هذين الاسمين العظيمين من أسمائك، وسر ذكرك لهما في كلماتك المقدسة، فامتلأت بكل مشاعر الهيبة والتعظيم والإجلال والمحبة لك.. وانمحت من قلبي كل مشاعر الخوف والوجل والرهبة من غيرك..

فأنت وحدك يا رب من يملك زمام الموت والحياة.. وأنت وحدك من يدبر أمرهما، ويصرفهما كيف شاء.. فلذلك لا خوف إلا منك، ولا رجاء إلا لك، ولا طمع إلا فيك.

لقد تأملت في قول عبدك الصالح إبراهيم للملك الجبار المستكبر عندما سأله عنك، يطلب تعريفا لك، فقال له: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} (البقرة: 258)، وقد كانت إجابة كافية شافية.. ومن كل الوجوه.. ذلك أننا عندما ننظر إلى المستكبرين وتربص الموت بهم نعلم أنهم لا يساوون أمام جلالك شيئا.. وكيف يساوون شيئا، وهم تحت رحمة اسمك المحيي المميت الذي لا يمكنهم الفكاك منه.. فحياتهم مثل موتهم بيدك وحدك.

ولذلك لا يصح الخوف منهم، ولا الثقة فيهم، ولا التوكل عليهم.. فمن قهره الموت أضعف من أن يكون سندا لغيره.. ولذلك قلت يا رب في كلماتك المقدسة تدعونا إلى التوكل عليك وحدك، لأنك وحدك الحي الذي لا يموت: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ } [الفرقان: 58]

ولذلك قال عبدك الصالح إبراهيم مخاطبا أولئك الذين

آذوه وظلمــوه محــدثا لهم عنــك: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (الشعراء:81)

ولذلك قال أولئك الصـادقون الـذين خرجـوا من عبوديـة فرعون إلى عبوديتك: {اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا } [طـه: 72]، لعلمهم أن المـوت لن يقضـي عليهم.. وكيــف يقضــي عليهم، وأنت المحــيي الــذي يحــيي الموتى؟

يــا رب .. لقــد تــأملت في مســيرة الخلــق وبحثهم عن الحيــاة الدائمــة.. فوجــدت أن أكــثر بحــوثهم فيهــا، وأكــثر اهتمامهم لهـا.. فبسـببها أو بسـبب فـترة قصـيرة من الحيـاة يضيفونها لأنفسهم بنـوا المستشـفيات والصـيدليات وأسسـوا المصانع والمدارس والجامعات.. لكنهم نسوا مع ذلك كله أن يرجعوا إليك، ليعرفوا أنك واهب الحياة.. وأن كـل مـا وفـروه لأنفسهم لن يحول بينهم وبين الموت الذي كتبته عليهم.

أنــا لا ألــومهم يــا رب على مــا قــدموه من بحــوث، أو أسسوه من مـدارس ومصـانع، فـذلك حسـنة من حسـناتهم، وأنت الذي خلقت الداء، وخلقت معه الدواء، وأمرتنا بــالبحث عنه.. لكني أتعجب من الغـافلين الـذين يتوهمـون أن حيـاتهم مرتبطة بالدواء.. وليست مرتبطة بـك.. ومرتبطـة بـالطبيب.. وليس برب الأطباء وملهمهم ومعلمهم.

والعجب الأكــبر منهم يــا رب في تــوهمهم أن الحيــاة مرتبطة بهذا القـالب الطيـني الـذي رُكب لهم لـيركبوه فـترة من الزمن، ثم يغادروه إلى غيره من المراكب.. وكـأن الـذي خلق الحياة، ووفرها في كل الأرجاء يعجز أن يركب قالبا آخر للحياة أكثر قوة وجمالا وصحة.

يـا رب .. فـاجعلني أسـتمد من اسـمك المحـيي لأعيش الحياة الحقيقية بكل معانيها.. لا حيـاة قـالبي الطيـني فقـط.. بل حياة روحي وعقلي وقلبي وكل اللطائف التي أودعتها في كياني.. فأنت صاحب كل أنـواع الحيـاة، وفي خزائنـك أجمـل صورها ومظاهرها.. ولا تعطيها إلا لمن طلبهـا منـك، أو كـانت له قابلية الظفر بها.

لقد قلت في كلماتك المقدسة تدعونا إلى ذلك: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24]

يا رب .. إن هذه الكلمات تشير إلى ذلك الموت العظيم الذي يقبع فيه من يتوهم أنه حي.. بينما لا ينبس بالحيـاة منـه إلا جسده وخلاياه وأنسـجته.. أمـا روحـه وعقلـه وقلبـه وكـل لطائفه الجميلة، فمدفونة في طينـه وحمئـه المسـنون الـذي استغنى بالنظر إليه عن كل شيء.

لذلك يا رب كـان كـل أولئـك الـذين يزعمـون لأنفسـهم الحياة بعيدا عنك ليسوا سوى قبور متحركـة.. لأنـه لم يظفـر بالحيـاة منهم إلا تلـك الخلايـا والأنسـجة الـتي لا تختلـف عن تراب الأرض وطينها.

وكيف يمكن أن يظفروا بالحياة الحقيقيـة، وهم بعيـدون عنك، وعن الروح التي نفختها فيهم؟

وكيف يمكن أن يظفروا بالحياة الحقيقيـة، وهم بعيـدون عن الاتصال بك، والتواصل معـك.. وأنت روح الـروح، وعقـل العقل، وسر السـر.. ومن كـان بعيـدا عنـك كـان مجـرد وهم وخيال وسراب.

إلهي .. فـارزقني الحيـاة الحقيقيـة في الـدنيا والآخـرة.. تلك الحياة التي تمتـد للطـائفي جميعـا.. فـترى الأشـياء كمـا خلقتها لا كمـا تبرزهـا الأوهـام.. لأراهـا بعين لطفـك، وأسـمع حديثها بسمع كرمك.

يـا رب.. وأسـألك أن تميت فيَ كـل مـا يبعـدني عنـك.. أمت من نفسـي أهواءهـا الأمـارة بالسـوء.. وأمت من عقلي كل الحجب التي تحول بينه وبين معرفة الحق والتسليم لــه.. وأمت من روحي كل ما ينزل بها إلى عـالم السـفل، ويحـول بينها وبين الترقي إليك، ولقائك.

يــا رب.. لقــد جعلت الحيــاة من أعظم نعمــك علينــا.. فلولاهـا لم نسـمع ولم نبصـر ولم نعلم ولم نعـرف.. ولولاهـا لجهلنـاك.. ولولاهـا لمـا قـدرنا على الاتصـال بـك والتواصـل معها.. فاحفظها لنا يا رب بكرمك.. وارزقنا من الحياة أكملهـا وأشـرفها وألطفهـا وأجملهـا حـتى نعيش بصـحبتك وبصـحبة جمالك المطلق، وكمالك المقدس.

ونعوذ بك يا رب أن نختصر الحياة في جوانبهـا الحسـية، تلـك الـتي لا تسـاوي شـيئا أمـام حيـاة الـروح الـتي وفرتهـا لأوليائـك والصـادقين من عبـادك.. فعاشـوا الحيـاة الحقيقيـة الخالـدة الـتي تبهت أمامهـا كـل أنـواع الحيـاة، وكـل أصـناف الأحياء.

يا رب.. وإن نقلتنا من هذه الـدار بـالموت الـذي قدرتـه لنا.. فارزقنا بعدها تلك الحياة التي وصـفتها في قولـك: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـــوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 169 - 171]

ارزقنا يا رب موتة الشهداء، لنتشرف بأن نقـدم أرواحنـا فداء لجمالك.. ولنظفر بعدها بتلك الجوائز السنية الـتي تـتيح لنا أن نعيش الحياة الحقيقية في رياض كرمك الـذي لا حـدود له.

وقاموا بالحروب ح

هـو الـذي يقـرر توحيـد اللـه، ونفي الوسـائط: {كَيْـفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتـاً فَأَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة:28)، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُـورٌ} (الحج:66)، وقـال تعـــالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَـيْءٍ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ} (الـروم:40)، وقـال تعـالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِـكُ

الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَـمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الزمر:42)

{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْـرَ فَسَـيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُـلْ أَفَلَا تَتَّقُـونَ} [يـونس: 31]

ولذلك عرف إبراهيم الله تعالى للملـك الطاغيـة بقولـه: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} (البقرة: 258)، وفي موقف آخــر، قـــال إبـــراهيم عليـــه الســـلام: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (الشعراء:81)

وقال تعالى عن الثاني: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَـذَابَ الْحَرِيـقِ} (لأنفــال:50)، وقـــال تعــالى: {وَلَــوْ تَــرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَـوْتِ وَالْمَلائِكَـةُ بَاسِـطُو أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُـوا أَنْفُسَـكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَـذَابَ الْهُـونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ غَيْـرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون} (الأنعام: 93)

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِـهِ وَأَنَّهُ إِلَيْـهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: 24]

{وَهُــوَ الَّذِي أَحْيَـاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَــانَ لَكَفُورٌ} [الحج: 66]

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الروم: 40]

الكلمات المقدسة

إلهي.. يا من كل شيء نابع من كلماتك المقدسة.. فكل شيء ثمرة لقولك كن.. فلا يكون إلا ما أمـرت بكينونتـه.. ولا يحدث إلا ما أمرت بإحداثه.

لقـد رحت أتأمـل في معـاني كلماتـك، فـرأيت أنهـا من أعظم نعمـك على عبـادك.. فلولاهـا لم يعرفـوك، ولولاهـا لم يهتـدوا إليـك، ولولاهـا لم يتمكنـوا من السـير إلى حضـرتك.. فبكلماتك دللتهم، وببيانك وضحت لهم معالم الطريق حـتى لا يقعوا في الضلالة، أو تأسرهم الأهواء.

لقد كانت كلماتـك يـا رب أعظم دليـل لنـا عليـك.. فبهـا عرفنــا رحمتــك ولطفــك وكرمــك.. وبهــا عرفنــا حقيقتنــا ومصيرنا.. وبها عرفنا ما ترضاه منا، وما لا ترضاه.. وما يقربنا منك، وما يبعدنا.. وما يزلفنا لديك وما يطردنا.

ولولاهـا يـا رب لعشـنا في غيـاهب الظلمـات والعمى.. نتناول النعمة من غير أن نعرف مصدرها.. ونعيش الحياة من غير أن نعرف حقيقتها ولا نهايتها.. فكلماتك هي الهـدى الـذي أنقــذنا من كــل ضــلالة، وهي النــور الــذي أطفــأ عنــا كــل الظلمات.

وكلماتك يا رب هي حبلك الممدود إلينا الـذي من تعلـق به نجا.. ومن نفر عنه هلك.

وكلماتك يا رب هي سـفينة النجـاة الـتي لا ينجـو إلا من ركبها صادقا مخلصا مذعنا لمن جعلته ربانها.

وكلماتــك يــا رب هي البلســم الــذي يــداوي الجــروح، ويشفي ما في الصدور، ويرفع كل هم، ويزيل كل ألم.

كلماتك يا رب هي ربيع القلوب الذي لا تذبل أزهاره، ولا تنقطع ثماره، ولا تجف أرضه، ولا تصيب العلل نسيمه.

لقد عشــت يــا رب في رحــاب كلماتــك المقدســة، وأرى تجلي جمالــك فيهــا.. وكــانت مرشــدي إليــك ولكــل حقــائق الوجود.. ولولاها لصرت مثل كل أولئك الــذين ضــلوا لأنهم لم يعرفوك، واكتفوا بنيــل الحقــائق من عقــولهم المدنســة بــدل أخذها من كلماتك المقدسة.

يا رب.. لقد ترك بعضــهم الحقــائق المرتبطــة بكلامــك.. وراح يبحث في تفاصــيلها بعقلــه.. ليحــول من كلامــك مــادة للجدل والهذر والتكفير والتبديع.

لقد صور له هواه أن الكلام محصور فيما نســتعمله نحن البشر من الوسائل.. وأن المتكلم يحتاج إلى شــفتين ولســانا وأسنانا وهواء وموجات صوتية.. فراح يفرض عليك ذلك كله.. وهو لا يعلم أنك القدوس الذي تنزه عن الآلات.. والغني الذي لا يحتاج إلى الوسائط.. ولذلك تتكلم متى تشاء كيف تشــاء.. بأي لسان تشاء..

ولو أن هؤلاء تواضعوا، وعلموا قــدرهم، وأنهم أحقــر من أن يخوضوا فيما لا يعرفونــه، لتنــاولوا الثمــرة دون أن يبحثــوا في حقائقها.. فعقولهم أحقر من أن تصل إليها، وكيــف تصــل إليها، وهم لا يعرفون أدنى شيء يتعلق بأجسادهم وأعضــائهم وحياتهم.. فكيف يريدون معرفة الحقائق الــتي لا يتطــرق لهــا الخيال، ولا تدركها العقول، ولا تلمسها الأوهام.

إلهي .. فأعذني من ذلك الجدل.. أو من الخوض فيمـا لا أطيقــه.. واجعلــني أعيش كلماتــك بكــل قداســتها ولطفهــا وسموها.. حتى أرحل إليك بها وأنا طاهر من التلوث بــالأهواء والمراء والخصومة.

إلهي .. واجعلــني أســتمع إلى كلماتــك المقدســة، ولا أكتفي فقط بقراءتها.. أستمع إليها من بحر الأزليـة والأبديـة.. لأعيش معانيها وحقائقها وأتذوق جمال ملقيها والمتكلم بهــا.. فما أعظم أن نسمع كلماتك منك.

إلهي وحــدثني في ســري بكــل معـاني قداسـتك.. فمـا أجمل أن يكون الحـديث بيـني وبينـك.. ومـا أجمـل أن تكـون معلمي ومؤدبي وأستاذي.. وما أجمل أن أعيش معك في كل الشؤون.. فأنت يا إلهي تكلم من تشاء بما تشاء كيف تشاء.

وكيـف تحرمـني يـا رب من كلماتـك، وأنت الـذي كلمت النحل، وهديتها إلى مراشد أمورهـا.. فكمـا كلمتهـا فكلمـني، وكما هديتها، فاهدني، وكما علمتها فعلمني.

يا رب.. أنت تراني كـل حين أتوجـه إليـك بالسـؤال.. ثم أكف خواطر السوء عني لأسـتمع لكلماتـك وإلهامـك.. فكـف عني كل ما يحول بينك وبيني.. وأعـذني من الشـيطان الـذي يخلط إلهامه بإلهامك، وكلامه بكلامـك.. إنـك على كـل شـيء قدير.

البارئ المصور

إلهي.. أيها البارئ المصور..

يا من خلق كل شيء وبرأه بمنتهى الدقة والإحكام.. ثم صوره كما يشاء، بحكمته ولطفه وإبداعه.

لقد رحت أتأمل في صور كـل الكائنـات، وأرى التفـاوت بينها.. فامتلأت بالتعظيم لك، ولحكمتك، فأنت يا رب لا تعطي صور الأشياء إلا بناء على مقتضـيات علمـك ولطفـك بخلقـك، لتختبرهم وتربيهم وترقيهم وتسـلك بهم سـبل أهـل السـعادة التي ارتضيتها لهم.

لقد رأيت من الخلق من راح يشكو لك صورته الدميمة، ويود لو أنك أبدلتها له بصورة حسنة، ويذكر لك قـدرتك على ذلك.. ولو أنك يا رب استجبت له، لوقع سجينا لصورته، ولمـا مد يده إليك يستغيثك، ويتوسل إليك..

ولو أنه يا رب .. راح يحسـب سـنوات الـدنيا .. ويقارنهـا بعمر الأبد.. ويعلم أن صورته الحقيقة مخبأة في ذلـك الـزمن الممتـد.. لاكتفى بفضـلك الممتـد عن ذلـك الزمـان القصـير المحـدود الـذي اختبرتـه فيـه بالدمامـة لـيرجع إليـك، ويكـون تمحيصا له ولخلقك.

ولو أنه يـا رب .. نظـر إلى روحـه ومـا أودعت فيهـا من الجمال، لاستغنى بجمال روحه عن دمامـة جسـده.. وبجمـال حقيقتـه عن دمامـة رسـمه.. فمـا ينفـع الإنسـان أن تكـون حقيقته دميمة، وقالبه الطيني جميلا.

يا رب .. فـاجعلني أنظـر إلى جمـال الحقـائق.. حـتى لا أحجب بصـور القـوالب الـتي وضـعتها فيهـا لتكـون اختبـارا لخلقك.

يـا رب.. لقــد كـان عبـدك الصـالح بلال أسـود شـديد السواد.. وكان المشركون يسـخرون من سـواده.. لكن قلبـه الممتلئ بتوحيدك كان أعذب من الزهـور، وأرق من النسـيم، وأحلى من كل ألوان الحلاوة، وأجمل من كل ملوك الجمال..

وقــد ذهب المشــركون الــذين رمــوه في الصــحراء، ووضــعوا على صــدره الصــخرة.. وذهب معهم إلى دارك الأبدية.. وهم الآن لا يحلمون برؤية جماله الذي تبدى بعــد أن كان مستورا، وظهر بعد أن كان خفيا..

أمـا جمـالهم الـذي كـانوا يزدهـون بـه، ويفخـرون، فقـد طغت عليـه دمامـة أرواحهم، وقـذارة نفوسـهم؛ فتحـول إلى مستنقع آسن مملوء بكل ألوان الكدورة.

يا رب .. فاجعل الجمـال الـذي يهفـوا إليـه قلـبي جمـال بلال.. ذلـك الجمــال الــذي لا نــزال نــراه في دينــه وأخلاقــه وسموه وروحانيته وتضحيته.. وهـو الـذي تجلى بعـد ذلـك في صورته الجميلة التي دخل بها عالم البرزخ، وسـيدخل بهـا مـا بعده من العوالم.

لقـد ذكـرت ذلـك يـا رب في كلماتـك المقدسـة، فقلت تعزي أولئـك الـذين رمـاهم الخلـق بالدمامـة، وضـحكوا على صورهم، وسخروا منها، ولم يعلموا أنهـا اختبـار لهم: {وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَـاحِكَةٌ مُسْتَبْشِـرَةٌ (39) وَوُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ

عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)} [عبس: 38 - 40]

وقلت في كلماتك المقدسة: {هَلْ أَتَاكَ حَـدِيثُ الْغَاشِـيَةِ (1) وُجُـــوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِـــعَةٌ (2)} [الغاشـــية: 1،ـــ 2]، وفي مقابلهـــا: {وُجُـــوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَـــةٌ (8) لِسَـــعْيِهَا رَاضِـــيَةٌ (9)} [الغاشية: 8 - 10]

وقلت تعزيهم، وتملأ قلوبهم بالأمـل في الصـور الجميلـة الـتي تنسـجم مـع أرواحهم وطيبتهم وأخلاقهم: {يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَـرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَـا كُنْتُمْ تَكْفُـرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّـتْ وُجُـوهُهُمْ فَفِي رَحْمَـةِ اللـه هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ} [آل عمران: 106، 107]

يـا رب لقـد ذكـرت في كلماتـك المقدسـة تحكمـك في عـالم الصـور، فتهب من تشـاء مـا تشـاء منهـا، إمـا تنعيمـا وتفضلا، أو تمحيصا واختبارا، فقلت: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَـرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَـكَ فَسَـوَّاكَ فَعَـدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الانفطار: 6 - 8]

وذكرت قدرتك المطلقة على ذلك، والتي تبدأ من عـالم الأرحام، فقلت: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 6]

وذكرت قدرتك على تبديل الصور وتغييرهـا كيـف تشـاء، فقلت: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْـفَ يَشَـاءُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 6]

وذكرت أن كل ذلك من باب الاختبار لخلقك، حتى تميز الصادقين من الكاذبين، فقلت: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا} [الإنسان: 28]

وكل ذلك يا رب .. ليعلم خلقك أن كل شيء بيدك.. وأن خزائن لطفك تحوي كل ما ترغب فيه نفوسهم.. ليرجعوا لك، ويعبدوك، ويتركوا الأهواء التي تعلقوا بها من دونك.

يا رب.. لقد شاءت حكمتك أن ترسل من يغير على الجمال فيحوله إلى دمامة.. ويغير على الأزهار، فتذبل.. وعلى النسيم العليل، فيتحول إلى أعاصير قاسية.. وعلى البحر اللطيف، فيتحول إلى أمواج عاتية.. ليعلم الخلق أن كل شيء بيدك..

وليتعلموا إلا يسكنوا لغيرك.. فالأشياء بيدك، وأنت الذي تصرفها كيف تشاء.

يا رب .. وأعوذ بك أن أكون كذلك الذي قيل فيه: (رب وجه صبيح، ولسان فصيح، غدا بين أطباق النار يصيح)، فكم من عبادك من غرتهم صورهم، فراحوا يعبدونها، ويتفنون في تزيينها إلى أن وجدوا أنفسهم خالين من كل فضيلة، ممتلئين بكل رذيلة.

يا رب.. فاملأ قلبي بحب الجمال الحقيقي الذي هو جمالك.. وهب بصري من الصفاء حتى لا تغره صور القوالب، ولا تجذبه تقاسيمها، ولا تفنيه عن نفسه ملامحها.. بل اجعلني أرى ببصيرتي عالم الروح، لأميز بين الجمال الحقيقي الذي هو هبتك، والجمال الشكلي الذي هو اختبارك.. إنك أنت أرحم الراحمين.

المغني المستغني

إلهي .. أيها الغني المغني المستغني..

ما أجمل هـذه الأسـماء، ومـا أعظمهـا.. ولـو أن الخلـق التفتوا إليها، واكتفـوا بهـا لاسـتغنوا عن كـل شـيء إلا عنـك.. ولفرطوا في كل شيء إلا فيك..

فأنت ـ يا رب ـ الغني الذي يملك كـل شـيء من الملـك والملكوت.. والدنيا والآخرة.. والحس والمعنى.. فلا شـيء إلا وهو ملكك ابتـداء وانتهـاء.. وكـل أغنيـاء الـدنيا الـذين فرحـوا بغناهم لا يملكون قطرة من محيطات أملاكـك الواسـعة.. ولا جوهرة من خزائنك المملوءة بكل أصناف الجواهر.. بـل إنـك تملكهم وما يملكون..

وأنت ـ يا رب ـ مع غناك الواسع كـريم جـواد يمكنـك أن تغـني من التجـأ إليـك عن غـيرك.. فـإن احتـاج صـحة، فـأنت الطبيب.. وإن احتاج رزقا، فـأنت الـرزاق.. وإن احتـاج علمـا، فأنت المعلم.. وإن احتاج سعادة، فأنت المسعد.. وإن احتـاج هدايــة فــأنت الهــادي.. وإن احتــاج العمــر الطويــل، فــأنت المحـيي.. وإن احتـاج أن ينتصـف ممن ظلمـه، فـأنت الـولي النصير..

وهكذا لا توجد حاجة من حاجات الدنيا والآخرة إلا ولديك مفــاتيح خزائنهــا، ويكفي من يطلبهــا منــك أن يلتجئ إليــك، ويسـتغيث بـك، ويقـدم طلبـه لـك.. من غـير أن يسـتأذن في ذلك، ولا أن يقف في طـابور المنتظـرين، ولا أن يـذل نفسـه

لخلقك.. بل يكفي أن يرفع يديه، ويقـول: يـا رب.. لتقـول لـه بفضلك وكرمك: لبيك عبدي.

وأنت ـ يا رب ـ المستغني عن خلقك .. تعطيهم من غير أن تطلب منهم.. وإن طلبت منهم لم تطلب منهم لنفســـك، وإنمـــا تطلب منهم لهم.. فـــأنت لا تريـــد لهم إلا الســـعادة والرضى والراحـة والطمأنينـة.. فلـذلك إن أمـرتهم أو نهيتهم كان ذلك لحرصك عليهم، وحبك لهم، ونظرك في مصالحهم.

يا رب.. يا غني .. ويا مغني .. ويا مسـتغني.. اغنـني بـك عمن سواك، حتى لا أكون فقـيرا إلا لـك.. فـالفقر لـك عـزة، ومد اليد لك كرامة، والاستغاثة بـك نبـل، والرجـوع إليـك في كل حين، ولكل مطلب إنابة.

يــا رب.. أنت تعلم حاجــاتي من الــدنيا والآخــرة.. ومن شــؤون الحس والمعـنى.. وممــا يرتبــط بي، أو بمن ربطتهم بي.. فأغننا بك عمن سواك.. واجعلنا ننظر إلى ألطافك، ومــا ادخرتــه لنــا في خــزائن فضــلك حــتى لا نُحجب بخــزائن المترفين، وحتى لا نقول مـا قالـه أولئـك الجهلـة عنـدما رأوا خزائن قارون: { يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: 79]

بل اجعلنا نقول ما قاله {الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَـا إِلَّا الصَّـابِرُونَ } [القصص: 80]

يا رب.. اجعلنا نشعر بغنانا لارتباطنا بغناك حتى لا نحزن على ما فاتنا من الدنيا، وكيف نحزن وخزائنك هي خزائننا مــا دمنا متصلين بك، متواصلين معك.. وما دمت معنا، ومــا دمنــا

معك.. فما وجد من فقدك.. وما فقد من وجدك.

ولذلك نعوذ بك أن ننظر بدونية إلى أنفسنا أو ما ملّكتنـا من شؤون الـدنيا.. فهي مجـرد دنيـا.. ونحن فيهـا في سـفر.. والمســافر لا يحتــاج لنقــل كــل أملاكــه معــه.. ونحن في امتحان .. والممتحَن لا يحتاج أن يشغل نفسه بغير مـا امتحن فيه.

لذلك كان تقديرك لأرزاقنـا كرمـا منـك، وفضـلا عظيمـا، حتى لا نُحجب برؤيته والانشغال به عنك، وعما كلفتنا به ممـا يرفعنا، ويسمو بأرواحنا.

يا رب.. اجعلنا نتناول ما رزقتنا من فضل غناك بكـل مـا آتيتنـا من لطـائف.. فلا نأكـل الطعـام بأفواهنـا فقـط.. وإنمـا نشعر به قبل ذلك بأرواحنا وعقولنا وقلوبنـا، فنحمـدك عليـه، ونشعر بفضلك علينا بسببه، حتى لا يكون ذلك الطعام مجــرد زاد لخلايا أجسادنا، بل يكـون كـذلك زادا للطائفنـا وقلوبنـا .. يقربنا منك، ولا يبعدنا.. ويدخلنا عليك، ولا يحجبنا.

يا رب.. وما آتيتنـا من شـؤون الـدنيا.. فبـارك لنـا فيـه.. حتى لا نتثاقل بسببه إلى أهوائنا، وحتى لا تصيبنا الغفلة الــتي تبعدنا عنك.. لنقع حينها في الفقـر الحقيقي الـذي يقطـع عنـا مدد فضلك، وسوابغ نعمك.

يا رب .. وأنت المغـني الـذي لا تقـف دونـه حاجـة اغننـا بكـل مـا يقتضـيه فقرنـا من رزق.. فـارزق أجسـادنا الصـحة والعافيـة.. وارزق نفوسـنا الطهـارة والصـفاء.. وارزق قلوبنـا حبـك والأنس بـك والشـوق إليـك.. وارزق أرواحنــا الســمو والرفعــة لــترقى في معــارج الســير إليــك، ولا تتوقــف بهــا

الطريق دونك.

وارزق ـ يا رب ـ أوقاتنا البركة.. حتى تكون كل ليالينا وأيامنا مثل ليلة القدر المباركة التي هي خير من ألف شهر.

وأحلل بكل مكان نحل به البركة، حتى نغنم بغنائم برك وفضلك.. وحتى يتحقق فينا ما ذكرته عن عبدك الصالح المسيح عندما قال في مهده: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} [مريم: 31]

يا رب.. اجعلنا نكتفي بغناك وكرمك عن سواك حتى تتحقق فينا العبودية، وحتى نفر من الشرك.. فمن رأى غيرك معك أشرك بك.. ومن رأى لغيرك تصريفا معك وقع في الضلالة، وتشتت قلبه.

يا رب.. واجعل قلوبنا وأرواحنا مع أنبيائك وأوليائك الذين أغنيتهم عن سواك.. ارزقنا محبتهم والولاء لهم ونصرتهم حتى يحل علينا ما أنزلته عليهم من برك وفضلك وبركتك، وحتى ننال على أيديهم ما لا يمكننا أن نصل إليه بأيدينا.

فاسقنا بأيديهم من برك وفضلك ما يجعلنا أغنياء بك عمن سواك، فقد قلت عن عبدك الصالح سليمان: {هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [ص: 39]، وقلت عن خاتم رسلك وأعظمهم، ذلك الذي قربته إليك، وجعلته واسطة فضلك على عبادك: {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: 59]

يا رب .. فاسقنا بيد حبيبك محمد من شراب الآخرة ما

لا نظمأ بعده أبدا.. واسقنا بيده الشريفة من شراب الدنيا مـا لا نضـل بعـده أبـدا.. وارزقنـا أن نـركب السـفينة الـتي هـو رُبانهـا .. حـتى نصـل إلى بـر النجـاة في صـحبته وصـحبة المصـطفين من عبـادك الـذين ورثـوا الهدايـة، وورثـوا معهـا البيان والتبليغ.

فأغننا يا رب بما ورّثتهم من فضلك عن غـيرهم، حـتى لا نحتاج لسواهم، وحتى يكون شـرابنا خالصـا صـافيا بعيـدا عن كل كدر.

يـا رب.. هـذا سـؤالي.. وأنت أغـنى الأغنيـاء.. وأكـرم الكرماء.. ولن يخيب من دعاك.. ولن يضل من التجأ إليك.

المؤمن المهيمن

إلهي .. أيها المؤمن المهيمن..

يا من يؤمّن لعباده كل حاجاتهم.. ويؤمّنهم من جميع مخاوفهم.. ويهيمن على كل مقاليد أمورهم.. ويوفر لهم ما يحتاجون ابتداء وانتهاء، حتى لا يحتاجوا لغيره، ولا يضطروا لسواه.

خاب من لم يعرفك.. وخسر من لم يلجأ في كل أموره إليك.. فهو لن يجد عند غيرك إلا السراب.. ولن يرى في غيرك غير الوهم..

وكيف يكون لغيرك تصريف، ومفاتيح خزائن كل شيء بيدك؟.. وكيف يكون لغيرك معك تدبير، وأنت الحي القيوم الذي قامت به كل الأشياء.. فلا وجود لها من دون وجوده، ولا استمرار لها من دون مدده؟

يا رب.. لجأت إليك من مخاوفي فأمني.. وأبطل كل كيد يكيدني به من اختربتني بعدواتهم لي، واختبرتهم بموقفهم مني.. فحصني بحصنك، وأغثني بمددك.. فجنودك لا حدود لأعدادها، ولا لقدراتها، فأمددني بجندك، وأغثني بقوتك، حتى لا أكون ضعيفا، وأنت سندي، ولا مُهانا، وأنت عزتي، ولا مُخترقا، وأنت حصني، ولا عاجزا وأنت كهفي الذي لا ملجأ لي غيره.

يا رب.. لجأت إليك في جميع حاجاتي.. وأنت تعلمها.. ولا حاجة لي بذكر تفاصيلها.. وكيف أذكر لك ما أنت أعلم به مني.. فاقض لي حاجاتي من أمور الدنيا والآخرة.. والظاهر

والبـاطن.. والـروح والجسـد.. والحس والمعـنى.. والحاضـر والمستقبل.. وكل شأن من شؤوني ما خفي عني وما ظهر.. وما بدا وما استتر.

يا رب.. يكفيني علمك بحالي عن توضيح ما أريـده منـك بسؤالي.. فكرمك أعظم من أن يحتاج إلى مقالي.. أو يرتبط بـــدعائي.. وفضـــلك أعظم من أن يتوقـــف على اســـتغاثتي وتضرعي وتوسـلي.. فابـدأني بفضـلك.. وألهمـني أن أسـألك حتى أتحقق بالعبودية لـك.. ولـو أني أعلم أن فضـلك أعظم من أن يسـتدره سـؤالي.. وكيـف يكـون لـه ذلـك.. وسـؤالي فضل من فضلك، ولولا إلهامك لي ما سألتك، ولـولا تحريكـك للساني ما دعاك.

يا رب.. أنت المهيمن الذي لا يتصرف معه غـيره.. فكـل الشؤون لك.. وكل الأمور بيدك.. فأعوذ بك من أن أشرك بك غيرك.. أو أعتقد أن هناك من يهيمن على الأشياء سواك.

يا رب.. إني أعلم أنك ما وضعتنا في هذه الدار التي قـد يبـدو فيهـا لغـيرك بعض الملـك والسـلطان إلا لتمـيز بين من يبصر الحقائق، ومن يجهلها أو يتجاهلها.. ذلك الـذي لا يعـرف ملكك إلا بعـد أن يسـمع نـداءك في الخلائـق في ذلـك اليـوم العظيم: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]

أما الصادقون العارفون بـك، فهم يسـمعون نـداءك هـذا في كل حين.. وكيف لا يسمعونه، وكل شيء يدل عليه..

فذلك الملك أو ذلـك السـلطان أو ذلـك الـذي تـوهم أن مقاليـد الأمـور بيـده.. لا يملـك من نفسـه شـيئا.. فهـو تحت رحمة قوتك وقدرتك وقهرك.. وفاقد الشيء لا يعطيه.. فهـل

يمكن لمن يكون سجينا لقدرة غيره أن يكون له القدرة على التسلط عليهم؟

لقـد أدرك ــ يـا رب ــ السـحرة ذلـك، عنـدما رأوا عصـا عبدك الصالح موسى، وهي تلتهم سحرهم، وكل تلـك العلـوم التي فرحوا بها.. لقد أدركـوا أنهم وفرعـون لا يسـاوون شـيئا أمامك.. ولذلك سجدوا لك، وسلموا لك، وتبرؤوا من فرعون، وصاحوا بكل قوة في وجهـه: {لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَـا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه: 72، 73]

لقد علموا أن تلك الهيمنـة الـتي كـانت لفرعـون هيمنـة مجازيــة محــدودة قاصــرة.. فهــو إن تمكن من أجســادهم، ليعـذبها، فلن يتمكن من قلـوبهم ليزحزحهـا عن الإيمـان، ولا من عقولهم، ليفرض عليها ما يريده من شرك.

يـا رب.. فـاجعلني أشـعر بمـا شـعروا.. وبمـا يشـعر بـه عبادك الصالحون الـذين لا يخـافون إلا منـك، لعلمهم أن كـل شيء إليك، وأنه لا تصريف لأحد معك..

اجعلني يا رب.. أرى كل التيجان والعـروش هاويـة أمـام عرشـك وملكـك وسـلطانك، حـتى لا أستسـلم لأهـوائهم، أو أسـكن لإرضـائهم، أو أتكلم أو أتصـرف بمـا يقربـني منهم، ويبعدني عنك.

اجعلني يا رب .. أشعر بسلطانك الـدائم على الأشـياء.. وبهيمنتك المطلقـة عليهـا، حـتى لا أقـدم بيعـتي ولا ولائي إلا

لـك، أو للمصـطفين من عبـادك الـذي أمرتـني بـالولاء لهم، ونصرتهم، والكينونة معهم.

يا رب.. أعوذ بك أن أكون كأولئك الذين خـافوا سـلطان الأرض، ونســوا ســلطان الســماء.. بــل ســلطان الأرض والســماء.. بــل ســلطان كــل شــيء.. فســلّطتهم عليهم، فأذاقوهم كـل أنـواع البلاء.. فمن رضـي بغـيرك بـدلا عُـذب.. ومن بغي عنك متحَولا تـألم، وعـاش حياتـه كلهـا في سـجون أوهامه ومخاوفه.

يا رب .. فأمني بأمنـك.. وهيمن على مخـاوفي بقـدرتك حـتى لا يصـيبني مـا يؤذيـني.. وكيـف يصـيبني وأنت سـندي وموئلي.

إلهي.. واجعلــني من الــذين ســعوا إلى التشــبه بكــرم سماتك وجميل أوصـافك.. حـتى أكـون أمنـا وأمانـا لكـل من اتصل بي.. فلا يصيبه مـني إلا الخـير والبركـة.. والمـؤمن من أمنـه النـاس.. والمـؤمن من لم يصـب غـيره منـه إلا السـلام والخير والبركة.

واجعلـني يـا رب من المهيمـنين على أنفسـهم، حـتى لا تتسلط أهوائي على عقلي.. وحتى لا يتسـلط طبعي على مـا أمرته مني.. بل اجعل طبعي وفطـرتي منسـجمة مـع كرمـك وعدلك ورضاك ورحمتـك.. واجعـل عقلي أمـيرا على هـواي، حتى لا يقع في مسـتنقعات الضـلالة.. واجعـل روحي مهيمنـة على جسدي حتى تسمو لسموات فضلك وقربك ومعرفتــك.. يا أرحم الراحمين.. يا رب العالمين.

مالك الملك

إلهي.. يا ملـك .. ويـا مالـك.. ويـا مليـك.. ويـا من بيـده الملك.. ويا من لا ملك لغيره، ولا مالكية لسواه.

إني كلما تأملت في أحوال هذه المملكة الواسعة.. ومـا خلفها من عوالم الملكوت.. وما خلفهمـا من العـوالم الخفيـة التي لا حظ لمداركي بإدراكهـا أو التعـرف عليهـا، أعـرف أنـه يستحيل أن يكون هنـاك نظـام من دون منظم.. ولا دقـة من دون مقدر.. ولا مملكة من دون مالك.

يا رب.. فكل شيء يدل على أنـك الملـك.. كمـا أن كـل شيء يدل على أنك المالك.. وأنك وحدك الذي يملـك الملـك والملكوت.. وأنك وحدك الذي يحق له أن يكـون ملكـا، فكـل من عداك قد يملك ما لاحظ لـه فيـه، ولا حـق لـه معـه.. أمـا أنت فكل شيء ملكك، ولا تحكم إلا في ملكك.

يـا رب .. يـا ملـك الملـوك.. يـا من كـل أملاك الـدنيا والآخـرة.. والغيب والشـهادة أملاكـه.. ومن عـداه لا يملـك حقيقة، وإنما يملك اسـتعارة.. ولا يملـك أعيانـا، وإنمـا يملـك انتفاعا.. ولا يملك ديمومة، وإنما يملك لفترة قصـيرة، وقصـد الاختبار.

يا رب.. فكل ملك عدا ملكك مجاز.. وكل مالكيـة خلاف مالكيتـك إعـارة.. فـأنت المتفـرد بالملـك والمالكيـة في كـل الأزمان والأحوال.

يا رب.. فاجعلني أطيعك في كل الشـؤون.. فـأنت ملـك على كـل الشـؤون.. ومن تصـور أن هنـاك من الشـؤون من

ليس لك به علاقة، فقد أشرك بك، وتوهم أنك فوضت الأمر لخلقك، وتركت التدبير لهم.. مع أن الأمر أمرك.. والحكم حكمك.. والتدبير تدبيرك.

يا رب .. فأعوذ بك أن أكون كأولئك الجاهلين الذين أعطوك ما بخس من أوقاتهم وشؤونهم.. وأعطوا ملوك الدنيا المحاربين لك، والمشركين بك، كل طاقاتهم، فعبدوهم من دونك، وفوضوا لهم أمور خلقك.. مع علمهم أنهم مناوئون لك، محاربون لأوليائك.

فأعوذ بك يا رب أن أقع في ذلك الشرك.. فأنت ملكي ومالكي.. وأنت حاكمي وإلهي.. وأنت الذي أعبده في كل شيء.. في الشعائر التي أمرني بالتزامها.. وفي حياتي الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. وفي كل مواقفي.

أنت ملكي ومالكي ومدبر كل شؤوني.. وأنا عبدك الخاضع الذي يرجع لكلماتك المقدسة.. ولأوليائك الذين فوضت إليهم بيانها، حتى أعرف ما الذي علي فعله في كل موقف من المواقف، أو اختبار من الاختبارات.

يا رب.. عز جنابك أن تترك عبادك لأهوائهم، وأن تكتفي توجيهاتك لهم في تلك الشعائر التي شرعتها لهم.. بل إن شرائعك تمتد لكل الحياة، وتفاصيلها.. فأنت الذي تحكم في كل شيء.. وقيمك الرفيعة التي أنزلتها علينا في كتابك هي التي تبين لنا ما علينا فعله، وتصف لنا بدقة محال رضاك، حتى نكون عبيدا صالحين في مملكتك الواسعة.

يا رب.. فأعوذ بك أن أكون من المعارضـين لحكمـك، أو الواقفين في وجه قوانينك التي سـننتها لنـا، والـتي بينتهـا لنـا رسلك، وشرحها لنا أولياؤك.

واجعلـني يـا رب من أنصـارها ودعاتهـا والمنفـذين لهـا والحريصين عليها .. حتى ألقاك وأنا في حزبك الذي رضيت.. والذي جعلت له الغلبة.

يا رب .. لو أدرك عبادك الغافلون عنك المعارضـون لـك ما في شرائعك من المصـالح الـتي وفرتهـا لهم، لخجلـوا من أنفسهم، ولاكتفوا بـالعودة إليـك.. فهـل يمكن لمن أنشـأ كـل هذه العوالم أن يغفل عن مصلحة عبـاده، أو أن يـدعوهم إلى ما يضرهم؟

يا رب.. لقد كان جهلهم بك، وبعلمـك الواسـع، وخبرتـك العظيمة سبب تلك الجـرأة عليـك، حين توهمـوا أن شـرائعك خاصة بزمان دون زمان، أو مكان دون مكـان.. وكيـف ذلـك، وأنت رب المكان والزمان؟

يـا رب.. لقـد كـان من لطفـك بعبـادك أن أريتهم بعض جرائر معارضتهم لك.. حيث سقطوا في الحروب.. وانتكست إنسانيتهم وأخلاقهم.. ولو نفذوا شريعتك المملوءة بالسـلام.. وطبقـوا قوانينهـا المملـوءة بـالقيم الرفيعـة، لارتفعـوا بإنسانيتهم، ولتحولت البشـرية إلى المدينـة الفاضـلة الـتي لا يعيش فيهـا إلا الصـادقون الصـالحون، أولئـك الـذين تتـنزل عليهم البركات من السماء والأرض.

يـا رب.. لقـد وضـعتنا في هـذه الـدنيا موضـع الاختبـار والامتحـان لنختـار بين أن تكـون أنت ملكنـا أو أولئـك الـذين

اختبرتنـا بهم، واختـبرتهم بنـا.. فاجعلنـا نختـارك أنت.. فـأنت الملك، وما عداك عبيد.. وأنت الحاكم، ومن عداك رعية..

يا رب.. واجعلنا لا نخشـى غـيرك حـتى لـو سـلط علينـا سيوف قهره.. ولا نرجـو فضـل غـيرك حـتى لـو أمطـر علينـا سحائب كرمـه .. حـتى لا يكـون ذلـك حجابـا بيننـا وبين قـول كلمة الحق الـتي أمرتنـا بهـا.. أو مواقـف الحـق الـتي أمرتنـا بوقوفها.

يا رب.. أنت الذي تهب الملك لمن تشاء.. وتنزع الملــك ممن تشاء.. فاجعلنا ملوكا على أنفسنا.. حتى لا تتسلط علينا أهواؤنا.. واجعل أنبياءك وأولياءك ملوكا على عقولنـا وقلوبنـا وأرواحنا حتى تكون طاعتنا لهم مقربة لنـا منهم، ومزلفـة لنـا لديك.

يـا رب.. ونعـوذ بـك أن نخضـع لكـل ملـك يعارضـك.. أو نملك على قلوبنا من لا يقدسك أو يعرفك.. فكن أنت ملكنا.. واجعل عرشك في قلوبنا حتى نسمع نداء مالكيتـك وملكيتـك في كل الأحيان والأحوال.. وحتى لا يتسـلط الشـيطان علينـا، وكيف يتسلط الشيطان على من في قلبه عرشك؟

يا رب.. يا ملك .. ويا مالك .. هب لنا من ملكك ما تغنينا به عن سواك.. وهب لنا من حبك ما يجعلنا نشعر بأن كل مــا تملكــه ملــك لنــا.. فــالحب يختصــر المســافة بين الحــبيب والمحبوب.. ويلغي المالكية بينهما.. يـا رب العـالمين، وأرحم الراحمين.

الرقيب الشهيد

إلهي.. أيها الرقيب الشهيد.. الذي لا يغيب.. ولا يأفل.. ولا تطرأ عليه الغفلة ولا النسيان.. ولا تحول بينه وبين خلقه الحجب ولا الستور.. وكيف تحول بينه وبينها الحجب، وهو أعظم من أن يُحد أو يُحاط به.

يا رب.. شقي من لم يشهد شهودك ورقابتك وقربك.. وضل من رأى أنك بعيد عنه، أو أنك تحتاج إلى الوسائط لتراه أو تسمعه أو تلبي نداءه.

يا رب.. أنت أقرب إلينا منا.. وأنت أقرب إلى كل شيء منه.. وأنت أعلم بأسرارنا، وما نخفيه في أنفسنا..

أنت تدرك كل ذلك.. فلا يغيب عنك شيء في الأرض ولا في السماء.. ولا في ما نراه من الكون، ولا فيما لا نراه.. بل كل شيء أمامك كشيء واحد.. وأنت أقرب إلى الجميع.

والشقي من بعد عنك.. أو من تصور بعده عنك.. والسعيد من لاحظ قربك، فراعى الأدب معك.. وراح ينهل من فضلك، ويسعد بلقائك، وتطمئن نفسه بحضورك معه، وحضوره معك.

يا رب .. فاجعلني أشهدك في كل شيء حتى لا تغيب عني في شيء..

اجعلني أشهدك في صلاتي، فأخشع لك فيها.. وأعيش معاني كلماتك المقدسة التي علمتنا كيف نخاطبك بها.

واجعلـني أشـهدك في دعـائي ومناجـاتي.. حـتى يكـون دعائي لأجلـك، لا لأجـل مطـالبي.. ومناجـاتي لأجـل التواصـل معك، لا لأجل التوصل لأغراضي وحاجاتي.

واجعلني ـ يا رب ـ أشهدك في صيامي.. فـأكف عن كـل ما نهيتـني عنـه لأجلـك.. حـتى يكـون صـيامي لـك.. وجـزائي عليك.

واجعلني أشـهد قربـك وحضـورك معي في كـل شـؤون حياتي، حتى أراعيك فيها جميعـا، فلا تهم نفسـي بمـا يبعـدني عنـك، ولا أقـترب ممـا يحجبـني عن أبـواب فضـلك وكرمـك وقربك.

يـا رب.. اجعـل أسـماءك الحسـنى وصـفاتك العليـا بين عيني في كل حين، حتى أرى الكـون جميعـا من خلال نظـري إليها، وحتى أفتح جميع الأبواب من خلال مفاتيحها.

يا رب.. أيها الـرقيب الحاضـر.. الشـاهد الـذي لا يغيب.. والشـهيد على كـل شـيء.. اجعـل حبـك في قلـبي، واملأ بـه كياني حتى تكـون شـهادتي لـك شـهادة المحـبين المتحـررين بعبـوديتهم، لا شـهادة الأرقـاء الخـائفين، أو شـهادة التجـار الطامعين.

يـا رب.. اجعلـني أسـتغني برؤيتـك لي عن كـل رؤيـة.. وبشـهودك لي عن كـل شـهادة.. وبحضـورك معي عن كـل أنيس.. حتى أعيش في رحاب حضرتك المقدسة مستغنيا بك عمن سواك، راضيا بك عمن دونك.

يـا رب.. أنـا عبـدك الضـعيف الـذليل الحقـير المسـكين المسـتكين.. فـاجعلني بشـهودي لـك، وحضـوري معـك، قويـا

عزيزا كريما.. حتى ينالني من فضلك، ما يرفعني إلى درجات المقربين منك، أولئك الذين خلصتهم من أنفسهم، وحجبت عنهم شياطينهم، فصاروا عبادك المخلصين، الذين يفر الشيطان من ظلالهم، ويهرب من رؤيتهم.

يا رب.. فكما أنك حاضر معي في كل حين.. فاجعلني حاضرا معك في كل حين.. واجعل قلبي منشغلا برؤيتك، مملوءا بلذة التواصل معك، حتى لا تصيبني الوحشة، ولا يملؤني الكدر، ولا تسيطر علي الغفلة، ولا يستحوذ علي الشيطان.

يا رب .. أنا عبدك الذي ينتظر فضلك.. ويستمطر جودك.. ويرجو قربك.. فاجعلني من المقربين لك.. الممتلئين بحبك.. المشتاقين لجنابك.

واجعلني من أولئك الذين أسكنتهم في رياضك المقدسة في الدنيا قبل الآخرة، حتى أفد إليك، وأسعد بلقائك، وأنا في غاية الطهر والجمال، لأكون حقيقا بمنابر النور التي هيأتها لأوليائك الذين اكتفوا بك عمن سواك.. يا أرحم الراحمين.. يا رب العالمين.

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسائل الموجهة للحضـرة النورانيـة المقدسة أن تلغي كل الحجب والمسافات التي تربط بين العبـد وربـه.. لتصـل العبـد بربـه مباشـرة عـبر مناجاته والحـديث معـه وبثـه أشـواقه ومطالبـه، وفي جميع الشؤون.

وهي تختصر في مضامينها أكثر القضـايا العقديـة والعرفانية الواردة في المصـادر المقدسـة أو الـتراث الإسـلامي، وبصـياغة رقيقـة بعيـدة عن المصـطلحات الصعبة، أو الجدل، أو غيرها من الأساليب التي اضطر الفلاسفة أو المتكلمون إليها.

وهي تحـاول كـذلك أن تجـادل عن تلـك المعـاني السـامية، ولكن بطريقـة حسـنة بعيـدة عن الشـغب، والمراء الذي نهينا عنه.

فهي تخاطب العقل.. وتحاول أن تقنعه من خلال البـديهيات الـتي يسـلم لهـا.. ثم تنتقـل مباشـرة من العقل لتبث في القلب كل ألوان العواطف والمشاعر المرتبطة بتلك المعاني السامية.